

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ". [آل عمران/ ١٠٢]

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا"

[النساء/ ١]. "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا". [الأحزاب/ ٧٠ - ٧١].

إن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار ... وبعد.....

أخي المسلم..... أختي المسلمة "

في زمن المتغيرات السريعة، وفي زمن الفتن الحالكة حيث استعرت فيه نار الشهوات، وأصبحت الجولة فيه لأهل الباطل وجنده، وأضحى المسلمون فيه ضعفاء يختطفهم الناس من حولهم، وأصبح المسلم غريباً بين أهله وقومه، وأصبح المسلم في حاجة إلى ما يثبت به فؤاده على الإيمان، ويربط على أركانه ويثبت أقدامه على الصراط المستقيم، فهو في حاجة إلى معرفة وسائل الثبات أمام تلك الفتن: فتنة الظلمة والطغاة، وفتنة الشهوات، أمام المصائب والبلايا، والثبات عن الممات.

فها هي - أخي المسلم - وسائل الثبات وصور الثبات على الإيمان تهتف بك وتدعوك:
لا تخف، لا تحزن، لا تهن، لا تضعف، فلست وحدك على الطريق فقد صار في ذلك ثلة
الأنبياء والرسل.

فقد نأح في ذلك الطريق نوح عليه السلام ألف سنة إلا خمس عاما، وألقي خليل
الرحمن ﷺ في النيران، وأصيب فيه موسى وعيسى وزكريا ويحيى -عليهم السلام- و
شج فيه ﷺ، فما وهنوا وما ضعفوا وما استكانوا بل كان حالهم {وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ
قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ
(١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [آل عمران:
[١٤٧، ١٤٨]

فأصبر وصابر ورابط وقل "يا مقلب القلوب والأبصار وثبت قلبي على دينك"

أبو همام

السيد مراد سلامة

إمام وخطيب ومدرس وزرة الأوقاف المصرية

hamam4111@gmail.com

الباب الأول

وسائل الثبات على الإيمان

الباب الأول

وسائل الثبات على الإيمان

اعلم - علمني الله وإياك - أن المسلم في حاجة ماسة إلى معرفة وسائل الثبات التي تثبته في زمن كثرت فيه الفتن، وكثرت فيه الأهواء والشهوات، وأصبح المسلم المعتصم بدينه المتمسك بسنة نبيه ﷺ غريبا بين أهله وإخوانه، فضلا عن العالم الخارجي الذي يموج بالفتن، وأصبح المسلم فيه غريبا كقول النبي ﷺ "بدأ الإسلام غريبا")
لذا أصبح لزاما وأجل مسمى أن يتعرف المسلم على وسائل الثبات حتى لا يفتن في دينه و حتى يثبت على عقيدته، فالثبات على الإيمان معناه: الاستقامة على الهدى والنسك بالتقى، وقسر النفس على طريق الحق والخير والبعد عن الذنوب والمعاصي و صوارف الهوى والشيطان.

وهيا لتتعرف لي وسائل الثبات على الإيمان:

أولا: الاعتصام بكتاب الله تعالى:

ذلك الكتاب الذي نزل على نبيه ﷺ منجما ليثبت به فؤاده
يقول الشيخ محمد المنجد: "القرآن العظيم وسيلة الثبات الأولى، وهو جبل الله المتين، والنور المبين، من تمسك به عصمه الله، ومن اتبعه أنجاه الله، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم.

نص الله على أن الغاية التي من أجلها أنزل هذا الكتاب منجماً مفصلاً هي التثبيت، فقال تعالى في معرض الرد على شبه الكفار: **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢)}** [الفرقان: ٣٢]

* لماذا كان القرآن مصدراً للتثبيت؟؟

- ١- لأنه يزرع الإيمان ويزكي النفس بالصلة بالله.
- ٢- لأن تلك الآيات تنزل برداً وسلاماً على قلب المؤمن فلا تعصف به رياح الفتنة، ويطمئن قلبه بذكر الله.
- ٣- لأنه يزود المسلم بالتصورات والقيم الصحيحة التي يستطيع من خلالها أن يقوم الأوضاع من حوله، وكذا الموازين التي تهين له الحكم على الأمور فلا يضطرب حكمه، ولا تتناقض أقوله باختلاف الأحداث والأشخاص.
- أنه يرد على الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام من الكفار والمنافقين كالأمثلة الحية التي عاشها الصدر^(١)

و من منطلق القرآن الكريم تتولد جميع وسائل الثبات ، فهو يدعو إلى الصبر و إلى الاعتصام بحبل الله و إلى تدبر قصص الأنبياء ، و إلى الدعاء ، فالقرآن الكريم أعظم مصدر للتثبيت لأنه يزرع الإيمان و يقوي الصلة بالله كما أنه العاصم من الفتن و كيد الشيطان و غوايته ، كما أنه يزود المسلم بالتصورات و القيم الصحيحة التي يستطيع على ضوئها أن يقوم الأوضاع التي حوله تقويماً صحيحاً ، كما أن القرآن الكريم بما اشتمل عليه من أحكام و صول و قوعد و حكم و قصص يرد على الشبهات ، فإن عُلِمَ ذلك كله

^(١) - وسائل الثبات على دين الله (ص: ٨-٩)

لزم على من أراد الثبات في الدنيا و الآخرة ، و الفوز بالنعيم المقيم أن يتخذ القرآن سميره و أنيسه و أن يجعله رفيقه " (١)

ثانيا: الإيمان بالقضاء والقدر:

فمن وسائل الثبات على الإيمان أن يؤمن العبد بالقضاء و القدر ، و أن كل شيء مكتوب بقدر ، و أن كل شيء في كتاب ، " فإذا آمن العبد بأن كل ما يصيبه مكتوب ، و آمن أن الأرزاق و الآجال بيد الله ، فإنه يقتحم الصعاب و الأهوال بقلب ثابت و هامة مرفوعة ، و قد كان هذا الإيمان من أعظم ما دفع المجاهدين إلى الإقدام في ميدان النزال غير هيايين و لا وجلين ، و كان الواحد منهم بطلب الموت في مظانه ، و يرمى بنفسه في مضائق يظن فيها هلكته ، ثم تراه يموت على فراشه ، فيبكي أن لم يسقط في ميدان النزال شهيداً ، و هو الذي كان يقتحم الأخطار و الأهوال .

وكان هذا الإيمان من أعظم ما بُتت قلوب الصالحين في مواجهة الظلمة و الطغاة ، و لا يخافون في الله لومة لائم ، لأنهم يعلمون أن الأمر بيد الله ، و ما قدر لهم سيئاتهم . و كانوا لا يخافون من قول كلمة الحق خشية انقطاع الرزق ، فالرزق بيد الله ، و ما كتبه الله من رزق لا يستطيع أحد منعه ، و ما منعه الله لعبده من عبيده لا يستطيع أحد إيصاله إليه . (٢)

ثالثا: الاعتصام بالله و الافتقار إليه:

يقول إبراهيم الدويش : " إذا عرفت الهدف و بان لك الطريق و رضيت بهما فإياك أن تعتمد على نفسك الضعيفة و على حولك و قوتك ، فأنت أخي مهما بلغت ضعيف و الله تعالى

(١) - مجلة التوحيد "عدد ربيع الأول ١٤٢٤" ص (٣٤)

(٢) - كتاب القضاء و القدر ص (١١١-١١٢)

يقول {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: ٢٨] نعم لا حول ولا قوة لك إلا بالله، فعليك في زمن الفتن والشبهات والشهوات بالاعتصام بالله، أليس المتغيرات تتلاحق؟ أليس الشبهات والشهوات تموج كموج البحر فلا عاصم لك إلا بالله.

تأمل: أخي لماذا نشكو للناس؟ لماذا تنن بضعف نفسك؟

اشك الأمر لله، كن مع الله، إذا سجدت فأعلن ضعفك وافتقارك لله {وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [آل عمران: ١٠١]

ألست تريد الهداية إلى الصراط المستقيم؟

إذن اعتصم بالله تعالى، أعلن دائما في كل لحظة الضعف والافتقار أكثر من الدعاء والانكسار في مثل هذا الزمن، فلا عاصم لك من الفتن إلا الله، لا معين ولا منجي لك في زمن الشهوات إلا الله، لك في رسول الله ﷺ أسوة فقد كان ﷺ يكثر في سجوده من قوله "يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ".^(١)

بل كان ﷺ يقول "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ"^(٢)

فأين نحن إذن من تكرار مثل هذا الأدعية خاصة في مثل هذا الزمن؟ أليس الله يقول في الحديث القدسي "يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ"،^(٣)

اطلبوا الهداية افعلوا أسبابها تجنبوا مواطن الشبهات ... ألحوا على الله تعالى بالهداية، إذا سألت أخي فاسأل الله، إذا استعنت فاستعن بالله، وردد دائما {رَبَّنَا أَفْرِغْ

(١) - أخرجه أحمد (٢٩٤/٦) انظر صحيح الجامع : ٤٨٠١ ، الصحيحة : ٢٠٩١

(٢) - أخرجه ابن أبي شيبة (٤٦/٦) ، رقم ٢٩٣٥٨ ، وأحمد (١٢٣/٤) ، رقم ١٧١٥٥ ، وابن حبان (٣١٠/٥) ، رقم ١٩٧٤ ، انظر

الصحيحة : ٣٢٢٨ ، صحيح موارد الظمان : ٢٠٤٧

(٣) - أخرجه مسلم (١٩٩٤/٤) ، رقم ٢٥٧٧ ، وابن حبان (٣٨٥/٢) ، رقم ٦١٩ ، والحاكم (٢٦٩/٤) ، رقم ٧٦٠٦

عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَبَّتْ أَقْدَامُنَا {البقرة: ٢٥٠} كرر في كل وقت {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} [آل عمران: ٨]

يقول ابن القيم: ((أجمع العارفون بالله على أن الخذلان: أن يكلك الله على نفسك، ويُخَلِّي بينك وبينها. والتوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك.

فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه، بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا، فيطيعه ويُرضيه، ويذكره ويشكره بتوفيقه له، ثم يعصيه ويخالفه، ويُسَخِّطُه ويغفل عنه بخذلانه له، فهو دائر بين توفيقه وخذلانه.

فمتى شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه، عِلِمَ شِدَّةَ ضرورته وحاجته إلى التوفيق في كلِّ نَفْسٍ وكلِّ لحظةٍ وطرفة عينٍ، وأنَّ إيمانه وتوحيده بيده تعالى، لو تخلَّى عنه طرفة عينٍ لَثَلَّ عَرْشُ توحيده، ولخَرَّتْ سماءُ إيمانه على الأرض، وأنَّ الممسك له: هو من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه))^(١)

هيا أعلن افتقارك إلى الله واهتف:

ولست إلى عبادك بالفقير	فقيرا جئت بابك يا إلهي
وأطمع منك في الفضل الكبير	غني عنهم ييقين قلبي
فحسبي العون من رب قدير	إلهي ما سألت سواك عونا
فحسبي العفو من رب غفور	إلهي ما سألت سواك عفوا
فحسبي الهدى من رب بصير	إلهي ما سألت سواك هديا

^(١) -كتاب لا تحزن (ص: ١٦٣)

إذا لم أستعن بك يا إلهي فمن عوني سواك ومن مجيري؟

فالطلب العون من صاحب العون و اسمع إلى كلام ابن القيم - رحمه الله - إذ يقول: {

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ} [إبراهيم: ٢٧]

كنز عظيم من وفق لمظنته وأحسن استخراجه واقتناؤه وأنفق منه فقد غنم ومن حرمه فقد

حرم وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفه عين فإن لم يثبته وإلا زالت سماء

إيمانه وأرضه عن مكانهما وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله {وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ

لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا} [الإسراء: ٧٤]

فكان أثبت الناس قلبا وأثبتهم قولاً، والقول الثابت هو القول الحق والصدق وهو ضد

القول الباطل الكذب فالقول نوعان ثابت له حقيقة وباطل لا حقيقة له وأثبت القول كلمة

التوحيد ولوازمها فهي أعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا والآخرة" (١)

فما منح عبد أعظم من منحة القول الثابت، ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج من

يكون إليه في قبورهم ويوم معادهم.

رابعا: الاستعانة بالأعمال الصالحة التي تثبت العبد عند حلول الفتن والشهوات:

رأس تلك الأعمال الصبر والصلاة يقول المولى سبحانه وتعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٥٣]

يقول ابن القيم - رحمه الله - "الصبر إذا قام به العبد كما ينبغي، انقلبت المحنة في حقه

منحةً، واستحالت البلية عطيةً، وصار المكروه محبوباً، فإن الله سبحانه وتعالى لم يبتله

عطيةً، وصار المكروه محبوباً، فإن الله تعالى على العبد عبودية في الضراء، كما له عبودية

(١) - إعلام الموقعين (١ / ٧٦)

في السَّراءِ، وله عبوديَّةٌ عليه فيما يحبُّونه، والشَّأنُ في إعطاءِ العبوديَّةِ في المكارِه، ففيه تفاوتٌ مراتبِ العبادِ، وبحسبه كانت منازلُهم عند الله تعالى" (١)

وصدق الله {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} [النحل: ١٢٧] {فَصَبِرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [يوسف: ١٨]

وقال ابن عمر -رضي الله عنه- بالصبر أدكنا حسن العيش "

ولأهل السنة عند المصائب ثلاثة فنون: الصبر، الدعاء، وانتظار الفرج.

وقال الشاعر:

سقيناهموا كأسا سقونا بمثلها ولكننا كنا على الموت أصبرا

وقال ﷺ "حَمَّ اللَّهُ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ" (٢)

بيتٌ للمجدِّ والساعون قد جهد النفوس وألقوا دونه الأُزرا بلغوا

وكابدوا المجد حتى ملَّ أكثرهم وعانق المجد مَنْ أوفى ومن صبرا

لا تحسبِ المجد تمراً أنت آكلُهُ لن تبلغِ المجد حتى تُلَقِّقِ الصِّبرا

خامسا: الصلاة:

ومن أعظم وسائل الثبات على طريق الإيمان الصلاة فهي هو النبي ﷺ كان اذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة " (٣)

(١) - لا تحزن (ص: ٤١٨)

(٢) - أخرجه البخاري في: ٥٧ كتاب فرض الخمس: ١٩ باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه

(٣) - أخرجه أحمد (٣٨٨/٥) وأبو داود (١٣١٩) انظر صحيح الجامع: ٤٧٠٣

وكان يقول ﷺ "أرحنا بها يا بلال" ^(١)

ويقول ﷺ " جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ " ^(٢)

إذا ضاق الصدرُ، وصعب الأمرُ، وكثر المكرُ، فاهرعْ إلى المصلّي فصلّ.

إذا أظلمت في وجهك الأيامُ، واختلفت الليالي، وتغيّر الأصحابُ، فعليك بالصلاة.

كان النبي - صلى الله عليه وسلم - في المهمّات العظيمة يشرح صدره بالصلاة، كيوم يذرّ والأحزاب وغيرها من المواطن. وذكروا عن الحافظ ابن حجر صاحب (الفتح) أنه ذهب إلى القلعة بمصر فأحط به اللصوص، فقام يصلي، ففرّج الله عنه.

وذكر ابن عساكر وابن القيم: أنّ رجلاً من الصالحين لقيه لص في إحدى طرق الشام، فأجهز عليه ليقتله، فطلب منه مهلة ليصلي ركعتين، فقام فافتتح الصلاة، وتذكّر قول الله تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ}. فردّدها ثلاثاً، فنزل ملك من السماء بحربة فقتل المجرم، وقال: أنا رسول من يجيب المضطرّ إذا دعاه. {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا}، {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}، {إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا}. .

يقول ابن القيم - رحمه الله -:

فالصلاة من أكبر العون على تحصيل مصالح الدنيا والآخرة، ودفع مفاسد الدنيا والآخرة، وهي منهاأة عن الإثم، ودافعة لأدواء القلوب، ومطرّدة للداء عن الجسد، ومُنورة للقلب، ومُبَيضة للوجه، ومُنشّطة للجوارح والنفس، وجالبة للرزق، ودافعة للظلم، وناصرة

^(١) - ((جامع الأصول)) (٢٦٣/٦)، ((المسند)) (٣٦٤/٥)، ((المعجم الكبير)) (٣٣٩/٦)، ((مشكاة المصابيح)) (٣٩٣/١)، ((تخريج إحياء

علوم الدين)) (٣٦٩/١ - للحداد)، ((إحياء علوم الدين)) (١٦٥/١ - تخريج العراقي).

^(٢) - أخرجه الضياء في " المختارة " (١٥٣٢) المعجم الكبير: ٤٢٠/٢٠.

للمظلوم، وقامعة لأخلاق الشهوات، وحافظة للنعمة، ودافعة للنقمة، ومُنزلة للرحمة، وكاشفة للغمة" (١)

سادسا: التزام شرع الله والعمل الصالح:

يقول الله تعالى {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم: ٢٧]

قال قتادة: "أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح، وفي الآخرة في القبر". وكذا روي عن غير واحد من السلف.

وقال سبحانه {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا} [النساء: ٦٦]. أي على الحق.

وهذا بين، وإلا فهل نتوقع ثباتاً من الكسالى القاعدين عن الأعمال الصالحة إذا أطلت الفتنة برأسها وإدلبهم الخطب؟!

ولكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم صراطاً مستقيماً. ولذلك كان ﷺ يثابر على الأعمال الصالحة، وكان أحب العمل إليه أدومه وإن قل. (٢)

سابعا: تدبر قصص القران الكريم ودراستها وللتأسي والعمل:

و الدليل على ذلك قوله تعالى {وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [هود: ١٢٠] فما نزلت الآيات على عهد رسول الله ﷺ للتلهي و التفكه وإنما لغرض عظيم و هو تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ

(١) - زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ٢٠٩)

(٢) - وسائل الثبات على دين الله (ص: ١١-١٢)

وأفئدة المؤمنين، فالله - سبحانه وتعالى - لما ذكر الأنبياء في سورة الأنعام أوضح للنبي ﷺ الهدف من ذلك بقوله { **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ** } [الأنعام: ٩٠]

ويقول العلامة ابن كثير - رحمه الله - في قوله تعالى { **وَكَلَّا نَقْصُصَ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ** } [هود: ١٢٠]

وكل أخبار نقصها عليك، من أنباء الرسل المتقدمين قبلك مع أممهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين - كل هذا مما نثبت به فؤادك - يا محمد - أي: قلبك، ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة.

وقوله: { **وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ** } أي: [في] هذه السورة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وجماعة من السلف. (١)

ثامنا: الدعاء:

و من صفات عباد الرحمن أنهم يتوجهون إلى الله بالدعاء أن يثبتهم { **رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا** } [آل عمران: ٨] { **رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا** } [البقرة: ٢٥٠]

ولما كانت " قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلِّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ كَيْفَ يَشَاءُ، " (٢)

وكان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول "يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ". (٣)

فالدعاء هو سلاح المؤمن الذي يدافع به عن نفسه وبه تثبت الأقدام والقلوب.

(١) - تفسير ابن كثير - (٢/ ٤٦٥)

(٢) - أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب القدر - باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء - ٤/ ٢٠٤٥، رقم ١٧).

(٣) - حسن، لشواهد: أخرجه أحمد (٢٩٤/٦) انظر صحيح الجامع: ٤٨٠١، الصحيحة: ٢٠٩١

رأى أصحاب نور الدين محمود زنكي إنفاقه على الفقراء والمساكين، ولا سيما طلبه العلم وشدة طلبه الدعاء منهم فعوتب في ذلك فقال " والله إنني لأرجو النصر إلا بأولئك، كيف أقطع صلات قوم يقالون عني وأنا نائم على الفراش بسهام لا تخطئ (يريد الدعاء) وأصرفها إلى قوم لا يقاتل عني إلا إذا رأي بسهام قد تصيب وقد تخطئ " (١)

وما هو ﷺ يتوجه إلى ربه بالدعاء يوم بدر، ويوم الأحزاب، وغيرها من مواقف ومعارك.

تاسعا: الالتفاف حول العناصر المثبتة:

تلك العناصر التي من صفاتها ما أخبر به ﷺ " إن من الناس مفاتيح للخير، مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه " (٢)

البحث عن العلماء والصالحين والدعاة المؤمنين والالتفاف حولهم مُعين كبير على الثبات، وقد حدث في التاريخ الإسلامي فتن ثبت الله فيها المؤمنين برجال قال على - رضي الله عنه - : "إنا كنا إذا حمى البأس - ويروى: إذا اشتد البأس - واحمرت الحديق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً " (٣)

ومن ذلك ما قاله علي بن المديني - رحمه الله - "أعز الله الدين بالصدق يوم الردة وبأحمد يوم المحنة "

(١) - وقفات مع الأبرار ص (١٠٥)

(٢) - أخرجه الحسين المروزي في "زوائد الزهد" (٩٦٨) وابن ماجه (٢٣٧) وأبو الغنائم النرسي في "قضاء الحوائج" (٢٤)

(٣) - مسند أحمد، تحقيق الشيخ شاكر ٢ / ٦٤ رقم ٦٥٤، وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح، ومجمع الزوائد ٩ / ١٢.

وتأمل ما قاله ابن القيم -رحمه الله- عن دور شيخ الإسلام في التثبيت " وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضائق بنا الأرض أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحا وقوة ويقينا وطمأنينة فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه وفتح لهم أبوابها في دار العمل فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها" (١)

هنا تبرز الأخوة الإسلامية كمصدر أساسي للتثبيت، فإخوانك الصالحون والقديوات والمربون هم العون لك في الطريق، والركن الشديد الذي تأوي إليه فيشتبك بما معهم من آيات الله والحكمة .. الزمهم وعش في أكنافهم وإياك والوحدة فتتخطفك الشياطين فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية. (٢)

والتمسك بل العز بالنواجذ على الصاحب الصالح والمصاحبة، ولو تأملنا هذه الآية الكريمة في كتاب الله تعالى لكفتنا في الصحبة والمصاحبة، يقول الحق جل وعلا {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [الكهف: ٢٨]

تأملوا في زمن الفتن والشهوات الوصية:

ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى فكل قرين بالمقارن يقتدي

وكم من شاب يحب الخير ويتمنى الصلاح لكن شياطين الإنس له بالمرصاد، وكم من فتاة فيها الخير وعلى الفطرة وتحب الصلاح ولكن شياطين الإنس من الفتيات ممن

(١) - الوابل الصيب (ص: ٦٧)

(٢) - وسائل الثبات (ص: ٢٦)

جلسن لها بالمرصاد يصدونها عن ذكر الله و عن الخير، ونعوذ بالله من شر الناس، فيإياك وصحبة البطل و عليك بالأبطال " (١)

عاشرا الرضي:

و للرضا ثمرات إيمانية كثيرة وافرة تنتج عنه، و يرتفع بها الراضي إلى أعلى المنازل فيصبح راسخا في يقينه ثابتا في اعتقاده وصادقا في أقواله و أعماله و أحواله، فالرضا يُوجِبُ له الطُّمَأْنِينَةُ، وبرد القلب، و سكونه وقراره و ثباته عند اضطراب الشُّبُه والتباس والقضايا وكثرة الوارد، فيثبُتُ هذا القلب بموعودِ الله وموعودِ رسوله ﷺ ويقولُ لسانُ الحالِ: {هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا}. والسخطُ يوجبُ اضطراب قلبه، ورييته وانزعاجه، و عَدَمَ قراره، ومرضه وتمزقه، فيبقى قلقًا ناقمًا ساخطًا متمرّدًا، فلسانُ حاله يقولُ: {مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا}. فأصحابُ هذه القلوبِ إن يكن لهم الحقُّ، يأتوا إليه مُذْعِنِينَ، وإن طُولِبوا بالحقِّ إذا هم يصدفون، وإن أصابهم خيرٌ اطمأنوا به، وإن أصابتهم فتنةٌ انقلبوا على وجوههم، خسروا الدنيا والآخرة {ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}. كما أنَّ الرضا ينزلُ عليه السكينة التي لا أنفعَ له منها، ومتى نزلت عليه السكينة، استقام وصلاح أحواله، وصلاح بآله، والسخط يُبعدُه منها بحسبِ قَلْبِهِ وكثرتِه، وإذا ترحَّلت عنه السكينة، ترحَّل عنه السُرورُ والأمنُ والراحةُ وطيبُ العيشِ. فمن أعظمِ نعمِ الله على عبده: تنزلُ السكينةُ عليه. ومن أعظمِ أسبابها: الرضا عنه في جميع الحالات. (٢)

رضينا بك اللهم ربا وخالقا وبالمصطفى المختار نورا وهاديا

(١) - الثبات في زمن المتغيرات ص(٢٤-٢٦)

(٢) - لا تحزن (ص: ٢٧٣-٢٧٤)

فإما حياة نظم الوحي سيرها والا فموت لا يسر الأعادي

الحادي عشر: ذكر الله تعالى:

يقول محمد المنجد -حفظه الله- وهو من أعظم أسباب التثبيت.

- تأمل في هذا الاقتران بين الأمرين في قوله عز وجل: {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة

فاثبتوا واذكروا الله كثيراً} الأنفال / ٤٥.

فجعله من أعظم ما يعين على الثبات في الجهاد.

" وتأمل أبدان فارس والروم كيف خانتهم أحوج ما كانوا إليها - ما بين القوسين مقتبس من كلام ابن القيم رحمه الله في الداء والدواء. - بالرغم من قلة عدد وعدة الذاكرين الله كثيراً.

- وبماذا استعان يوسف عليه السلام في الثبات أمام فتنة المرأة ذات المنصب والجمال لما دعتة إلى نفسها؟ ألم يدخل في حصن " معاذ الله " فتكسرت أمواج جنود الشهوات على أسوار حصنه؟

وكذا تكون فاعلية الأذكار في تثبيت المؤمنين.^(١)

وذكر الله -عز وجل - هو الحصن الذي يتحصن به المسلم من أعدائه كما في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد و الترمذي من حديث الحارث الأشعري عن النبي ﷺ ،
وَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى

^(١) -وسائل الثبات (ص : ٢٨)

عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَخْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُخْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ
اللَّهِ" (١)

فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة لكان حقيقاً بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر
الله تعالى وأن لا يزال لهجا بذكره فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر ولا يدخل عليه
العدو إلا من باب الغفلة فهو يرصده فإذا غفل وثب عليه وافترسه

وإذا ذكر الله تعالى انخنس عدو الله تعالى وتصاغر وانقمع حتى يكون كالوصع
وكالذباب ولهذا سمي الوسواس الخناس أي يوسوس في الصدور فإذا ذكر الله تعالى
خنس أي كف وأنقبض قال ابن عباس: الشيطان جاثم على قلب آدم فإذا سها وغفل
وسوس فإذا ذكر الله تعالى خنس" (٢)

الثاني عشر: الثقة بنصر الله وأن المستقبل لهذا الدين :

نحتاج إلى الثبات كثيراً عند تأخر النصر ، حتى لا تزل قدم بعد ثبوتها ، قال تعالى : {
وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا
اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ
الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [آل عمران: ١٤٦ - ١٤٨].

ولما أراد رسول الله ﷺ أن يثبت أصحابه المعذبين أخبرهم بأن المستقبل للإسلام في
أوقات التعذيب والمحن فماذا قال ؟

(١) - رواه الترمذي (٢٨٦٧). صحيح الجامع : ١٧٢٤ ، صحيح الترغيب والترهيب : ٥٥٢

(٢) - الوابل الصيب (ص : ٥٦)

جاء في حديث خباب مرفوعاً عند البخاري: (وليثمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف الله والذئب على غنمه) ^(١)

فعرض أحاديث البشارة بأن المستقبل للإسلام على الناشئة مهم في تربيتهم على الثبات. ^(٢)

فأهل مكة قد جاءوا بحدهم وحديدتهم يحادون الله ورسوله، واليهود قد غدروا، والمنافقون يقومون بحرب نفسية، في هذا الموقف يحتاج المسلم إلى ما يثبت به فؤاده،

قال الحافظ بن حجر - رحمه الله -: ووقع عند أحمد والنسائي في هذه القصة زيادة بإسناد حسن من حديث البراء بن عازب قال لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول فاشتكيننا ذلك إلى النبي ﷺ فجاء فأخذ المعول فقال بسم الله فضرب ضربة فكسر ثلثها وقال الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة ثم ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض ثم ضرب الثالثة وقال بسم الله فقطع بقية الحجر فقال الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة " ^(٣)

وهكذا ربط النبي ﷺ على قلوب أصحابه و ثبت أقدامهم وأخبرهم بأن الغلبة للحق وأهله والعاقبة للمتقين فزادهم إيماناً مع إيمانهم وصدق الله العظيم إذ يقول: **{ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا**

إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا } [الأحزاب: ٢٢]

^(١) - رواه البخاري، انظر فتح الباري (١٦٥/٧)

^(٢) - وسائل الثبات (ص: ٢٦-٢٧)

^(٣) - فتح الباري لابن حجر (٧/ ٣٩٧)

يقول عبد الله ناصح علوان-حفظه الله:- إن التفاؤل بالنصر - يا شباب - لا هو الذي يهيئ النصر، وإن القوة المعنوية في الأمة هي التي تدفع شبابها و أبناءها إلى تحقيق المزيد من الانتصار الحاسمة في كل زمان و مكان ... وإن الله سبحانه مع المتقين المخلصين المجاهدين الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والحافظين لحدود الله ... { وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ } [القصص:

[٥

فما عليكم -يا شباب الإسلام - إلا أن تقطعوا من نفوسكم دابر اليأس و القنوط و تقبلوا على الدعوة إلى الله و الجهاد في سبيله الله بروح متفائلة و أمل بسام ... عسى الله سبحانه أن يحقق على أيديكم نصر الإسلام الأكبر و دولة الإسلام المسلمين العتيدة ... وما ذلك على الله بعزيز " أ هـ .^(١)

الثالث عشر: التأمل في نعيم الجنة وعذاب النار :

يقول الشيخ محمد المنجد-حفظه الله- " والجنة بلاد الأفراح، وسلوة الأحزان، ومحط رحال المؤمنين والنفس مفطورة على عدم التضحية والعمل والثبات إلا بمقابل يهون عليها الصعاب، ويذل لها ما في الطريق من عقبات ومشاق. فالذي يعلم الأجر تهون عليه مشقة العمل، وهو يسير ويعلم بأنه إذا لم يثبت فستفوته جنة عرضها السنوات والأرض، ثم إن النفس تحتاج إلى ما يرفعها من الطين الأرضي ويجذبها إلى العالم العلوي.

^(١) - دور الشباب في حمل رسالة الإسلام (ص: ٣٣-٣٤)

وكان النبي ﷺ يستخدم ذكر الجنة في تثبيت أصحابه، ففي الحديث الحسن الصحيح مر رسول الله ﷺ بياسر وعمار وأم عمار وهم يؤذن في الله تعالى فقال لهم: (صبراً آل ياسر صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة)^(١).

وكذلك كان ﷺ يقول للأَنْصار: (إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض)^(٢) متفق عليه.

وكذلك من تأمل حال الفريقين في القبر، والحشر، والحساب، والميزان، والصراط، وسائر منازل الآخرة.

وها هو ﷺ يبث الثقة ويثبت الأقدام في غمرة الجهاد بالجنة وما أعد الله فيها لأصحابها، عن أبي بكر بن أبي موسى قال سمعت أبي وهو بحضرة العدو يقول قال رسول الله ﷺ إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف قال فقام رجل رث الهيئة فقال يا أبا موسى أنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا قال نعم قال فرجع إلى أصحابه فقال اقرأ عليكم السلام ثم كسر جفن سيفه فألقاه ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل"^(٣)

وفي غزوة بدر قال رسول الله ﷺ قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض، قال عُمير بن حُمام الأنصاري: يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: نعم، قال: بَخٍ بَخٍ، فقال رسول الله ﷺ ما يحملك من قولك: بَخٍ بَخٍ؟ قال: والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: فإنك من أهلها، قال: فاخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل

(١) - رواه الحاكم ٣/٣٨٣ ، وهو حديث حسن صحيح ، انظر تخريجه في فقه السيرة تحقيق الألباني ص ١٠٣

(٢) - أخرجه البخاري في: ٦٤ كتاب المغازي: ٥٦ باب غزوة الطائف

(٣) - أخرجه : مسلم ٤٥/٦ (١٩٠٢) (١٤٦) .

منهن، ثم قال: لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتل^(١)

وهو يقول:

ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على العباد وكل زاد عرضة النفاذ
غير التقى والبر والرشاد

فما زال يقاتل حتى قتل " (٢)

ما الذي ثبت أقدام هؤلاء الأبطال؟

إنه من تأمل تلك الجنة ونعيمها وما أعد الله لأهلها من نعيم مقيم ... وها هو الإمام الأوزاعي لما دخل على عبد الله بن علي يقول " فدخلت والله ما تصورت في تلك اللحظة إلا عرش الرحمن بارزا والمنادي ينادي فريق في الجنة وفريق في السعير، فوالله ما رأيته أمامي إلا كذاب، والله ما دخلت بلاطه حتى بعت نفسي من لله جل وعلا

ويقول عائض القرني -حفظه الله- تحت عنوان: " ذكر نفسك بجنة عرضها السموات والأرض " : إن جعت في هذه الدار أو افتقرت أو حزنت أو مرضت أو بخست حقاً أو ذقت ظمأ فذكر نفسك بالنعيم، إنك إن اعتقدت هذه العقيدة وعملت لهذا المصير، تحولت خسائرُك إلى أرباح، وبلاياك إلى عطايا. إن أعقل الناس هم الذين يعملون للآخرة لأنها خير وأبقى، وإن أحق هذه الخليقة هم الذين يرون أن هذه الدنيا هي

(١) - أخرجه أحمد (١٣٦/٣ ، رقم ١٢٤٢١) ، ومسلم (١٥٠٩/٣ ، رقم ١٩٠١) .

(٢) - لا تحزن (ص ٤٢٨)

قرارهم ودارهم ومنتهى أمانهم، فتجدهم أجزع الناس عند المصائب، وأندهم عند الحوادث، لأنهم لا يرون إلا حياتهم الزهيدة الحقيرة، لا ينظرون إلا إلى هذه الفانية، لا يتفكرون في غيرها ولا يعملون لسواها، فلا يريدون أن يعكّر لهم سرورهم ولا يكدر عليهم فرحهم، ولو أنهم خلعوا حجاب الران عن قلوبهم، وغطاء الجهل عن عيونهم لحدثوا أنفسهم بدار الخلد ونعيمها ودورها وقصورها، ولسمعوا وأنصتوا لخطاب الوحي في وصفها، إنها والله الدار التي تستحق الاهتمام والكد والجهد.

هل تأملنا طويلاً وصف أهل الجنة بأنهم لا يمرضون ولا يحزنون ولا يموتون، ولا يفنى شبابهم، ولا تبلى ثيابهم، في غرف يرى ظاهرها من باطنها، وباطنهما من ظاهرها، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، يسير الراكب في شجرة من أشجارها مائة عام لا يقطعها، طول الخيمة فيها ستون ميلاً، أنهارها مטרده قصورها منيفة، قطوفها دانية، عيونها جارية، سرورها مرفوعة، أكوابها موضوعة، نمارقها مصفوفة، زرايبها مبنوثة، تم سرورها، عظم حبورها، فاح عرفها، عظم وصفها، منتهى الأماني فيها، فأين عقولنا لا تفكر؟! ما لنا لا نتدبر؟!

إذا كان المصير إلى هذه الدار؛ فلتخف المصائب على المصابين، ولتفر عيون المنكوبين، ولتفرح قلوب المعدمين.

فيها أيها المسحوقون بالفقر، المنهكون بالفاقة، المبتلون بالمصائب، اعملوا صالحاً؛ لتسكنوا جنة الله وتجاوروه تقدست أسماؤه {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} (١).

(١) - كتاب لا تحزن ١، ص: (٤٢٨-٤٢٩)

الباب الثاني

صور من الثبات على الإيمان

أمام الطغاة

الفصل الأول: ثبات الأنبياء الرسل.

الفصل الثاني: ثبات أتباع الأنبياء والرسل ممن كانوا قبلنا.

الفصل الثالث: ثبات الصحابة رضي الله عنهم

الفصل الرابع: ثبات التابعين.

الفصل الأول

ثبات الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام

أولاً: ثبات نبي الله نوح عليه السلام

دعا نوح عليه السلام قومه إلى الاعتراف بوحداية الله و عدم الإشراف به، وأن لا يعبد معه صنما ولا تمثالا ولا طاغوتا قال الله تعالى وقال سبحانه وتعالى { لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [الأعراف:

[٥٩

وقال سبحانه وتعالى { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ } [المؤمنون: ٢٣]

إن دعوة نوح عليه السلام لقومه خلال ألف سنة إلا خمسين عاما تتلخص في قوله تعالى : وتعالى { يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ }

وكان نوح عليه السلام حريصا على نجاة قومه من الهلاك لا يرجو لهم إلا الخير ولا ينتظر منهم مكافأة أو أجرا ولهذا تطف في خطابهم وسلك في دعوته لهم كل سبيل ومن أشهر ذلك :

١- فمن الأدلة على شفقتة ومحبتة لهم قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام { إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ } [هود: ٢٦]

٢- ويضع نوح عليه السلام الأمور في مواضعها الصحيحة قال الله تعالى على لسان نوح عليه السلام : { وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ } [هود: ٣١]

وكان نوح عليه السلام لا ييأس ولا يقنط من رحمة الله ولهذا فهو يواصل الليل مع النهار والسر مع الإعلان قال تعالى: { قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا } [نوح: ٥ - ٩]

ألف سنة إلا خمسين عاما قضاها نوح عليه السلام في الدعوة إلى الله دون كلل ولا ملل، وكلما عرض قومه غير و بدل في أسلوبه ، وها يعني أنه كان يحسب نفسه فإذا أعرض قومه عن

الدعوة العلنية عاد يبلغهم بصورة سرية ، وفي جميع الحالات كان رحيمًا بهم خائفًا عليهم من عذاب يوم أليم .

ولقد كان نوح عليه السلام قمة في الصبر ، وآية في الحلم ولأناة وسعة الصدر ، وأمة في الجد والمثابرة وطودا شامخا في التواضع وإنكار الذات ... وفوق ذلك كله ما كان يرجو منهم أجرا ولا مكافأة ، ولا كان يتخذ من الدعوة وسيلة لجمع المال وإحراز المكاسب ، فهل يتعظ بذلك الدعاة الذين سرعان ما يستولي اليأس على نفوسهم وسيئون الظن بأقوامهم فيتسرعون في إصدار الأحكام الظالمة عليهم وينهزمون أمام أية صدمة يتعرضون لها ؟ وهل يتعظ بذلك الدعاة الذين يقدسون ذواتهم ولا يقبلون من إخوانهم نقدا أو نصحا ولا يدعون إلى الله إلا باجر ؟^(١)

موقف الملاء وثبات نوح عليه السلام :

رغم هذه الرحمة الرحيمة التي كانت تفيض من نوح عليه السلام على قومه إلا أن هؤلاء القوم لا أجد لهم مثالا إلا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الطويل " وَأَصَابَ طَائِفَةٌ أُخْرَى مِنْهَا الْمَاءُ إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ وَانْتَفَعَ فَتَعَلَّمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ " ^(٢)

فهؤلاء الملاء لم تنفع فيهم الموعظة ولا التذكير بنعم الله ، ولهذا فقد شن الملاء حربا شعواء على نوح عليه السلام وأدبروا يسعون في الأرض فسادا واستخدموا وسائل ودعايات متناقضة في مواجهة أول رسول أرسله الله إلى الأرض

^(١) - منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله (ص : ٥٧)

^(٢) - أخرجه البخاري (٧٩) ، ومسلم (٢٢٨٢) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه

١- مما أخذه الملاء على نوح عليه السلام أن أتباعه كانوا فقراء مستضعفين ولم يستجيب لدعوته أحد من الأشراف و السادة، قال الله تعالى: **{ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بِادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ }** [هود: ٢٧] وقال أيضاً: **{ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ }** [الشعراء: ١١١]

وما زال لهذه الطبقية الشاذة الهمجية جذروا راسخة في عصرنا الذي يسمى بعصر التقدم والمدنية، فبعض المنسوبين إلى العلم يتناولون على الذين لا علم عندهم، والأغنياء المترفون - الرأسماليون والإقطاعيون - يحتقرون العمال الكادحين والفقراء المدقعين ولو كانوا أصحاب مواهب فذة، وأصحاب الوظائف الكبيرة يزدرون عامة الناس ويتخذون من أنفسهم أربابا من دون الله.

وهذه كلها مقاييس جاهلية مهما نعق دعائه بالمساواة والعدل، و الله سبحانه وتعالى مقياس واحد ثابت لا يتزعزع: **{ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ }** [الحجرات: ١٣]

إن المتقين أعز خلق الله وأرفعهم شأنًا، ولو كانوا شعثًا غُبرا لا يملكون مالا أو جاها ... ولهذا كان رد نوح على قومه ردا كله ثبات على تلك القيم التي يدعو إليها، فلم يحاول نوح عليه السلام أن يتنازل عن بعض المبادئ إرضاءً لأعدائه كما نرى من رعاى المسلمين الذين يتملصون عن مبادئهم وعن دينهم بل عن دستورهم من أجل إرضاء عيون أعدائهم.

قال نوح عليه السلام **{ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ }** [الشعراء: ١١٤] فهم مؤمنون، وكفاهم لك نسبا و شرفا .

٢- ثم شن أعداء الإسلام حملة إعلامية على نوح عليه السلام وعلى دعوته فتارة يشيعون بين الناس أنه ضال: **{ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ }** [الأعراف: ٦٠]

وتارة يتهمونه الكذب: { وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ } [هود: ٢٧]

وتارة يقولون: إنه مجنون: { إِنَّهُ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فُتِرَبِّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ } [المؤمنون:

[٢٥]

وهكذا تنقلب الموازين وتتذبذب القيم، وكل إناء بما فيه ينضح ... وها هم أحفادهم يشنون تلك الحرب على الإسلام والمسلمين، فمن اعتصم وتمسك بدينه صار إرهابيا، من نادى بالرجوع إلى الله و كتابه و سنة نبيه قالوا: متطرف أصولي !!! ولكن الحق أبلغ والباطل لجلج، والباطل ساعة والحق إلى قيام الساعة.

وما على العنبر الفواح من حرج إن مات من ريحه الزبال والجعل

فوقف نوح عليه السلام شامخ الرأس عزيز بدينه و مبادئه في ثبات الرسل أولى العزم وقال: { أَمْ

يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ } [هود: ٣٥]

وبلغ الحمق بقوم نوح عليه السلام منتهاه عندما صاروا يستعجلون عذاب الله الذي يحدثهم عنه نبيهم ، بل يسخرون من نوح وهو يصنع الفلك قائلين له : قد كنت نبيا فأصبحت نجارا ، و مبعث السخرية وذاك الاستعجال اعتقادهم أن نوحا ليس صادقا و لن يحل بهم عذاب أو هلاك قال تعالى { قَالُوا يَأْنُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ

الصَّادِقِينَ } [هود: ٣٢] و عندما أعوزتهم الحجة التي يردون بها على نوح و أدلته

الواضحة راحوا يهددونه بالرجم و القتل : { قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ

الْمَرْجُومِينَ } [الشعراء: ١١٦] وهكذا يسير اتباع قوم نوح عليه السلام على منهج قومهم و

أشباههم ، فاذا فشلت المحاوره و أنتصر الحق في حلبة المناظرة لم يجد هؤلاء إلا القوة

و التهديد و الوعيد و السجن و الرمي في غيابات المعتقلات ، و لكنها محاولات كلها

فاشلة لأن نور الحق سيقضى على خفافيش الظلام و في النهاية لن تجد لها مكانا إلا في
جهنم و بسّ القرار لأن أتباع الحق لن يتنازلوا عن عقيدتهم طرفة عين

تالله ما الدعوات تهزم بالأذى أبدا وفي التاريخ بريمي
ضع في يدي القيد ألهب أضلعي بالسوط ضع عنقي على السكين
لن تستطيع حصار فكري ساعة أو كبح إيماني ورد يقيني
فالنور في قلبي و قلبي في يدي ربي وربي حافظي ومعيني

فلما حسم الباري سبحانه القضية بين نوح عليه السلام و قومه و أخبره أنه لن يؤمن من قومه إلا
من قد آمن ، حيث قال تعالى {وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا
تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [هود: ٣٦] و عندها رفع نوح يديه {وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى
الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا
(٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ
الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا} [نوح: ٢٦ - ٢٨] {فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ} (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ
السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ} [القمر: ١٠ -
١٢]

و هكذا انتصر الحق بعد ألف سنة إلا خمسين عاما، و ثبت نوح عليه السلام و علّم الدعاة و
القائمين على الدعوة أنه لا يأس من رحمة لله و أن النصر مع الصبر .

ومن الدروس المستفادة ما قاله سيد قطب -رحمه الله - : إن الوشيعة التي يتجمع عليها
الناس في هذا الدين وشيعة فريدة تتميز بها طبيعة هذا الدين، وتتعلق بآفاق وآماد وأبعاد
وأهداف يختص بها ذلك المنهج الرباني الكريم.

إن هذه الوشيعة ليست وشيعة الدم والنسب وليست وشيعة الأرض والوطن، وليست وشيعة القوم والعشيرة، وليست وشيعة اللون واللغة، وليست وشيعة الجنس والعنصر، وليست وشيعة الحرفة والطبقة ..

إن هذه الوشائج جميعها قد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد كما قال الله سبحانه وتعالى لعبده نوح - عليه السلام - وهو يقول: **{ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلٍ } .. { يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ }** ثم بين له لماذا يكون ابنه .. ليس من أهله .. **{ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ }** .. إن وشيعة الإيمان قد انقطعت بينكما يا نوح: **{ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ }** فأنت تحسب أنه من أهلك ، ولكن هذا الحسبان خاطئ. أما المعلوم المستيقن فهو أنه ليس من أهلك ، ولو كان هو ابنك من صلبك! ^(١)

وقال - رحمه الله - : ثم نقف الوقفة الأخيرة مع قصة نوح لنرى قيمة الحفنة المسلمة في ميزان الله سبحانه: إن حفنة من المسلمين من أتباع نوح عليه السلام، تذكر بعض الروايات أنهم اثنا عشر، هم كانوا حصيلة دعوة نوح في ألف سنة إلا خمسين عاما كما يقرر المصدر الوحيد المستيقن الصحيح في هذا الشأن.

إن هذه الحفنة - وهي ثمرة ذلك العمر الطويل والجهد الطويل - قد استحققت أن يغير الله لها المألوف من ظواهر هذا الكون وأن يجري لها ذلك الطوفان الذي يغمر كل شيء وكل حي في المعمور وقتها من الأرض! وأن يجعل هذه الحفنة وحدها هي وارثة الأرض بعد ذلك، وبذرة العمران فيها والاستخلاف من جديد. ^(٢)

^(١) - في ظلال القرآن - (٤ / ١٨٨٦)

^(٢) - في ظلال القرآن (٤ / ١٨٩٢)

ويقول محمد زين العابدين : "كان نوح عليه السلام مع نشاطه في الدعوة الذي تضرب به الأمثال شديد الصلة بالله كثير الالتجاء إليه ، و ليراجع من شاء آ الآيات في قصة نوح التي تكون بدايتها : { قَالَ رَبِّ } وقد سماه الله عبدا شكورا ، فمن الله وحده كان نوح عليه السلام ينشد النصر وما كان وهو يواصل الليل مع النهار يعلق آمالا على أحلاف يعقدها مع المشركين ، ولا كان مغرورا بقوته أو قوة أتباعه المادية ، و من الأدلة على قوة إيمانه بالغيب رده القاطع على سخرية قومه وهو في أشد حالات الضعف بأنه سيسخر منهم غدا يوم ينصره الله ، وكان الله قريبا من عبده ورسوله نوح عليه السلام في كل عمل من أعماله فعندما صنع السفينة قال تعالى : { وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا } [هود: ٣٧] وعن السفينة وهي تجري في موج كالجبال قال تعالى : { تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا } [القمر: ١٤] أي بحفظنا و حراستنا و تقديرنا ، ولن تتغلب جيوش الدنيا كلها على قلة مؤمنة يحفظها ويرعاها الله ورحم الله من قال :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

و في مواضع كثيرة بين الله لنا كيف استجاب لنوح عليه السلام { وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ } [الأنبياء: ٧٦] { وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ } [الصافات: ٧٥] ونحن اليوم عندما نوثق صلتنا بالله و نكثر من الالتجاء إليه و ننتظر النصر و التمكين منه وحده سينصرنا و سوف يأخذ أعداءنا اخذ عزيز مقتدر ، فما بال كثير من الناس ينتظرون النصر من أمريكا أو السوفيات أو من الأحلاف التي يعقدونها مع الكافرين أو يعتمدون على انحرافات بعضهم و يسمونها سياسة ؟!!!

ليس والله هذا الحل بحل ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها " (١)

(١) - منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله (ص ٧٤-٧٥)

ثانيا: ثبات نبي الله هود عليه السلام

ترد سيرة هود عليه السلام في القرآن الكريم و هو مصدر معلوماتنا الوحيد و الصحيح عن عاد و رسولهم عليه السلام أثناء استعراض موكب الإيمان من لدن آدم عليه السلام إلى محمد عليه السلام
فنرى هودا في هذا الموكب يحمل دعوة (لا اله إلا الله) إلى قومه (عاد) و يدعوهم وقد

التوت بهم الطريق و انحرفوا عن الصراط المستقيم ، و تفرقت بهم السبل تحت ضغط الشهوات التي يقودهم الشيطان إليها محاولاً أن يرضي حقه ، و أن ينفذ وعده ، و أن يمضي ببني آدم من خطام هذه الشهوات إلى جهنم، فإذا بهود عليه السلام يواجه قومه بالهدى و يلوح لهم بالنور و يستروح بهم ريح الجنة و يحذرهم لفحات السموم و نزغات الشيطان الرجيم عدوهم القديم ، إن هودا عليه السلام حاول إنقاذ قومه (عاد) من الهاوية و خلال هذه المحاولة نلحم نلمح الصراع بين الهدى و الضلال ، بين الحق و الباطل ، و بين الرسول الكريم و شياطين الإنس و الجن ، ثم نشهد مصارع المكذبين في النهاية و نجاة المؤمنين الموحدين بعد الإنذار و التذكير، هذا هو مجمل دعوة هود عليه السلام ، وهما لنرى ثباته عليه السلام عندما قلب له قومه ظهر المجن و أبدوا العداوة و البغضاء .

شن عاد على هود عليه السلام نفس الحملة الكاذبة التي شنّها قوم نوح ، فقالوا له : { قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } [الأعراف: ٦٦] فرد هود عليه السلام و هو ثابت الجنان قوي الإيمان : { قَالَ يَأْقُومُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أَبْلُغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ } [الأعراف: ٦٧-٦٨] و اتهموه بالبشرية : { وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ } [المؤمنون: ٣٤] و ذهبوا كل مذهب يشكون في الدعوة ذاتها : { أَيْعِدْكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هِيَ هَاتِ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ } [المؤمنون: ٣٥ - ٣٨]

ولا يجد الرسول أمامه من سبيل بعد أداء واجب البلاغ كاملاً إلا أن يفاصل قومه و يبرأ من الشرك الذي يزاولونه مع التوكل على الله - عز وجل - مع بيان أن عدم الاستجابة

لداعي الله يعني استبدال قوم عاد بغيرهم واستئصال شافتهم: {قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ
وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ (٥٥) إِنِّي
تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
(٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ
شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ} [هود: ٥٤ - ٥٧]

وجاء الرد الإلهي متناسبا مع الظلم الذي ارتكبه عاد في حق ربها ودينها ورسوله
وشخصها: {وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ} [الأعراف: ٧٢] {وَتِلْكَ
عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ
الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ} [هود: ٥٩، ٦٠]
* وتظهر في قصة هود عليه السلام معالم الثبات على الإيمان:

١- البراءة من الشرك وأهله دون خوف أو وجل: {قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ
مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ} [هود: ٥٤، ٥٥]

٢- التوكل على الله في دعوته والإيمان بالقضاء والقدر الذي يدفع صاحبه إلى الثبات و
الرسوخ دون أدنى شك أو ريب وأن الآجال بيد الله تعالى فما شاء كان وما لم يشأ لم
يكن: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا
غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ} [هود: ٥٦، ٥٧]

إذا آمن العبد بأن كل ما يصيبه مكتوب، وآمن أن الأرزاق والآجال بيد الله، فإنه يقتحم
الصعاب والأهوال بقلب ثابت وهامة مرفوعة، وقد كان هذا الإيمان من أعظم ما دفع
المجاهدين إلى الإقدام في ميدان النزال غير هيابين ولا وجلين، وكان الواحد منهم يطلب

الموت في مظانه، ويرمى بنفسه في مضائق يظن فيها هلكته، ثم تراه يموت على فراشه، فيبكي أن لم يسقط في ميدان النزال شهيداً، وهو الذي كان يقتحم الأخطار والأهوال. وكان هذا الإيمان من أعظم ما بُتت قلوب الصالحين في مواجهة الظلمة والطغاة، ولا يخافون في الله لومة لائم، لأنهم يعلمون أن الأمر بيد الله، وما قدر لهم سيئاتهم. وكانوا لا يخافون من قول كلمة الحق خشية انقطاع الرزق، فالرزق بيد الله، وما كتبه الله من رزق لا يستطيع أحد منعه، وما منعه الله لعبده من عبده لا يستطيع أحد إيصاله إليه.^(١)

ثالثاً: ثبات نبي الله وخليفه إبراهيم ﷺ

إبراهيم ﷺ هو خليل الرحمن وهو أحد أولي العزم من الرسل المنصوص عليهم في آيتي الأحزاب والشورى قال سبحانه وتعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا} [الأحزاب: ٧]

^(١) -القضاء والقدر -عمر الأشقر (ص: ١١١-١١٢)

وقال سبحانه و تعالى { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى } [الشورى: ١٣]

و لقد أمر الله سبحانه باتباع ملة إبراهيم و السير على نهجه في الدعوة إلى الله سبحانه و تعالى، وقال سبحانه: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [النحل: ١٢٣]

وقصة إبراهيم عليه السلام كلها دروس و عبر تحتاج إلى أسفار كبيرة ولكنني سأقف مع بعض صور الثبات على الإيمان أمام الطغاة والمشركين:

أولاً: ثبات إبراهيم عليه السلام عند دعوته لقومه من عبادة الأصنام:

وها هو خليل الرحمن يقف موقف الداعية الذي امتلأ قلبه بالإيمان ذلك القلب الذي وصفه الله بقوله: {وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الصافات: ٨٣، ٨٤] الذي ألهمه الله الحجة و أعطاه إياها قال سبحانه {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} [الأنعام: ٨٣]

وهيا لنرى ذلك المشهد الذي يفيض بالثبات أمام قوم قد ألغوا عقولهم و عمت بصائرهم عن رؤية الحق يقول الحق سبحانه: {وَآتَىٰ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [الشعراء: ٦٩ - ٨٣]

*مشاهد الثبات في هذه الآيات:

١- أنه ﷺ كشف لهم عن حقيقة آلهتهم بأنها لا تنفع ولا تضر فلا هي تسمع ولا هي تدفع.

٢- أنه ﷺ واجههم بأنه عدو لتلك الحجارة التي كان عليها الأجداد والتي عليها الآباء

٣- ثم بين لهم إلهه الذي يعبدونه وأن الإله الحق هو الذي تتوافر فيه هذه الصفات: الخالق، الهادي، الشافي، المحيي، المميت، الغفار، الرحيم، الوهاب، فهذا هو الإله هو الهى أعبده، و الذى لا أعبد ربا سواه.

يقول الإمام الزمخشري -رحمه الله: "إن إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام، ولكنه سألهم ليريه أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء، -إلى أن قال-

لما أجابوه بجواب المقلدين لأبائهم قال لهم: رقوا أمر تقليدكم هذا إلى أقصى غاياته وهي عبادة الأقدمين الأولين من آبائكم، فإن التقدّم والأولية لا يكون برهانا على الصحة، والباطل لا ينقلب حقا بالقدم، وما عبادة من عبد هذه الأصنام إلا عبادة أعداء له، ومعنى العداوة قوله تعالى {كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا} ولأن المغرّى على عبادتها أعدى أعداء الإنسان وهو الشيطان، وإنما قال عدوّ لي تصويرا للمسألة في نفسه، على معنى:

أنى فكرت في أمرى فرأيت عبادتي لها عبادة للعدوّ، فاجتنبتها وآثرت عبادة من الخير كله منه، وأراهم بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسه أوّلا وبنى عليها تدبير أمره، لينظروا فيقولوا:

ما نصحنّا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه، وما أراد لنا إلا ما أراد لروحه، ليكون أدعى لهم إلى القبول، وأبعث على الاستماع منه. ولو قال: فإنه عدوّ لكم لم يكن بتلك المثابة،

ولأنه دخل في باب من التعريض، وقد يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه التصريح، لأنه يتأمل فيه، فربما قادة التأمل إلى التقبل ^(١).

ثانياً ثبات إبراهيم عليه السلام عند دعوته لعباد الكواكب:

قال الله تعالى : { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } [الأنعام: ٧٥ - ٨٢]

يقول محمد زين العابدين: تحت عنوان: (كان إبراهيم لا يخشى إلا الله) : بعض الذين يقرءون سيرة إبراهيم عليه السلام تتعلق أذهانهم بانتصاراته و تأييد الله له و الوقوف معه ضد أعدائه في جميع محنه و ابتلاءاته ، و ينسى هؤلاء أو يتناسون صعوبة الطريق الذي سلكه خليل الرحمن و غربته في قومه وشدة عداوة الناس له ومصائبه المتلاحقة التي عاناها قبل أن يكرمه الله بالنصر .

^(١) الكشاف (ج ٣/ص ٣١٨)

فإبراهيم عليه السلام هو يحطم الأصنام ما كان يعلم أبدا أن قومه سيلقونه في النار، وأن الله سينقذه منها، وكل الذي كان يعلمه أن الطغاة سينتقمون منه ربما أقدموا على قتله ... ومع ذلك هان عليه الموت في سبيل الله كما هان في عينيه قوة الطاغوت وبطشه عندما تذكر قوة الله، وزهد في مغريات الدنيا وشهواتها وآمن بأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة. وعندما هدده قومه وتوعده أجابهم بكل قوة وتصميم قال الله تعالى على لسان إبراهيم: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنعام: ٨١] كيف أخاف من أصنامكم وأنا أعلم أنها حجارة صماء لا تضر ولا تنفع !؟

كيف أخاف من قادتك وطواغيتكم وهم ضعفاء وإن ملكوا المال والقوة ... كيف أخاف منهم وأنا أعلم أنه إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فهم أحق بالخوف مني لأنهم عبدوا غيرا الله جلت قدرته وجحدوا آلاءه ونعمه وهم يرون آياته في كل شيء !؟

أنتم أحق بالخوف مني لأن شبح الموت يطاردكم ولهيب جهنم ينتظركم، ولن تغني عنكم في ذلك اليوم أموالكم وما تملكون شيئا، يوم تعرضون على ربكم حفاة عراة غرلا، ثم ينتقل خليل الرحمن عليه السلام من التخصيص إلى التعميم في حوار مع قومه: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأنعام: ٨٢] الذين آمنوا بالله وأذعنوا واطمأنت قلوبهم لقضاء الله وقدره ولم يخلطوا إيمانهم بشرك أولئك لهم الأمن ولو كانوا في سجون الظالمين ومعتقلاتهم لأنهم فضلوا واختاروا العذاب على الفتن والموت على الحياة واشتاقوا للقاء الله تعالى ، وآثروا جواره على كل مغريات الحياة الدنيا .

أما الكافرون فحياتهم جحيم لا يطاق ورعب لا يحتمل ، قال تعالى : { سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ } [آل عمران: ١٥١] و من مظاهر هذا الرعب الذي ألقاه الله في قلوب الذين أشركوا من الطواغيت أن كلا منهم يتمنى أن يسير في الشارع كغيره من الناس بل كأقل الناس غير أنه لا يجرؤ أن يسير ماشيا على قدميه ، وتراه يخرج في سيارة و معه الحرس ثم لا يشعر بالأمن بل ينتظر مصيره المحتوم في كل لحظة و يشك بأقرب الناس إليه ولو كانوا من خواص أقربائه و بطانته و إذا مات بدأ عند ربه حياة جديدة كلها عذاب و شقاء ، أما المؤمنون فيدعون إلى الله و يجاهدون في سبيله و كل ما يصيبهم خير و سعادة قال الله تعالى : { قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ } [التوبة: ٥٢] ولقد كانت هذه المعاني واضحة جليلة في نفوس الصحابة و التابعين و أعلم السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين .

سأل قائد جيوش الفرس (رستم) ربيعي بن عامر : ما جاء بكم ؟

فقال ربيعي - رضي الله عنه - الله ابتعثنا لنخرج من نشاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، و من ضيق الدنيا إلى سعتها ، و من جور لأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ، و من أبى قاتلناه أبدا حتى نفضي إلى موعود الله .

قال : وما موعود الله ؟

قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن بقي .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمى - رحمه الله - " ما يصنع أعدائي بي ! أنا جنتي وبستاني في صدري، أينما رحت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وكان يقول المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه.

ولما أدخل ووصل إلى سجن القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: **{ فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ }** [الحديد: ١٣]

من أجل هذا انتصر إبراهيم عليه السلام كمت انتصر خاتم الأنبياء ، وأصحابه و التابعون و من جاء بعدهم من رجال خير القرون ، و لن تهزم أمة يقودها علماء و دعاة يعتقدون بأن السجن خلوة و النفى سياحة و الموت شهادة ، و عندما فقدت أمتنا هذه النماذج من الرجال الدعاة سلط الله علينا أعداءنا و صرنا هدفا لشذاذ الآفاق و حثالة الأمم و أصبح المسلمون غطاء كغشاء السيل لا يرهبهم أحد و لا يحسب لهم أي حساب ، و من المؤسف جدا أن كثيرا من الدعاة إذا سمع أحدهم أن السلطة تراقب تحركاته اعتراه الخوف و اشتد قلقه و صار يشك بأقرب الناس إليه و ربما تحول الخوف من السلطة عند بعضهم إلى مرض عقلي مزمن و العياذ بالله ...^(١)

ثبات إبراهيم عليه السلام عندما ألقوه في النار:

يقول سبحانه و تعالى **{ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذَا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ**

^(١) - منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله (ص ١٤١-١٤٣)

إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَاتُّوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) { [الأنبياء: ٥١ - ٧٠]

اعترف قوم إبراهيم في ذلك اليوم العصيب بأنهم هم الظالمون لأنهم يعبدون آلهة لا تنطق ولا تسمع وهذا أول مرة يفكرون فيها بعجز أصنامهم وضعفها غير أن صحوة ضمائرهم لم تستمر غلا لحظات ثم أنتصر صوت الشيطان في نفوسهم فنكسوا على رؤوسهم وأصروا على كفرهم وأصدروا قرارهم الجائر قال الله تعالى: { قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ }

وهذا هو سلاح أهل الباطل الذين يلجأون إليه في مواجهة أنبياء الله ورسله وحمله الإسلام في كل عصر ومصر.

أجمع قوم إبراهيم عليه السلام على قتل نبيهم انتصارا لآلهتهم واختاروا له أفضع قتلة وهي الإحراق بالنار، وليس في أي نار بل بنوا له بنيانا شاهقا ووضعوا فيه كميات كبيرة من الحطب شارك القوم كلهم في جمعها، قال تعالى: { فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا } [الكهف: ٢١] وفي رواية لابن أبي حاتم من طريق السدي: أن المرأة لتمرض فتقول: لئن عافاني الله لأجمعن لإبراهيم حطبا، وقال ابن إسحاق وجمعوا الحطب ثم أوقدوه فاشتعلت

النار و اشتدت حتى إن كان الطائر ليمر بجانبها فيحترق من شدة وهجها ، ثم قيدوا إبراهيم ووضعوه في المنجنيق مغلا .

ثبات إبراهيم عليه السلام في تلك المحنة:

وفي تلك اللحظات كان إيمان إبراهيم عليه السلام بربه أشد رسوخا من الجبال الرواسي ، و كانت ثقته بنصر الله و تأييده أقوى من الأرض و من عليها ، و لهذا كان غير مكثر لجماهيرهم المحتشدة و نيرانهم الملتهبة و كلماتهم النابية ، عن ابن عباس رضي الله عنه قال : **{ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ }** [آل عمران: ١٧٣] قالها إبراهيم حين ألقى في النار و قالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا : **{ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ }** [آل عمران: ١٧٣] ، وفي رواية أخرى لابن عباس قال: كان آخر قول إبراهيم حين ألقى في النار : **{ حَسْبِي اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ }** ^(١)

وهكذا تجلت ثقة إبراهيم عليه السلام بربه ، فلم يلتجأ إبراهيم عليه السلام إلا إلى الله سبحانه و تعالى فجاء الجواب و النصر من الله و هو الذي بيده النصر : **{ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) }** [الأنبياء: ٦٩ ، ٧٠] وهكذا يجب على الدعاة إلى الله سبحانه و تعالى **{ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ }** [آل عمران: ١٧٥] أن يبلغوا دعوته و لا يخافوا إلا من الله سبحانه و تعالى : **{ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }** [يوسف: ٢١] إن النصر مع الصبر و أن الفرج مع الكرب .



^(١) -منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله (ص: ١٢٧-١٢٨)

رابعاً: ثبات نبي الله موسى ﷺ

نبي الله موسى ﷺ هو كليم الله، فالله سبحانه كلمه دون واسطة، قال جل جلاله {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} [الأعراف: ١٤٣]

وهو أحد أولي العزم من الرسل، وقصة موسى ﷺ ملحمة دعوية بين الحق والباطل، فيها دروس والعبر الكثير والكثير، فهيا أخي المسلم لنقف مع بعض المشاهد التي ظهر فيها الثبات على الإيمان أمم طغيان أهل الكفر والعصيان.

الصورة الأولى - ثبات نبي الله موسى ﷺ عند مواجهة فرعون:

يصور المولى سبحانه تلك المواجهة التي دارت بين نبي الله موسى عليه السلام و عدو الله فرعون - عليه لعنة الله - وكيف أن موسى كان أثبت الناس إيماناً وأقواهم حجة يقول سبحانه : { وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ اتَّبِعْ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ لَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَادْخُلْ بَايَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَيْنَ اتَّخَذَتْ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ

مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أُولَؤُ حِثُّكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ
(٣٣) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ
فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ
سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ
مُجْتَمِعُونَ (٣٩) الْمُقَرَّبِينَ (٤٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤١) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ
وَعَصِيَّهِمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٢) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ
مَا يَأْفِكُونَ (٤٣) فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٤) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) رَبِّ مُوسَى
وَهَارُونَ {الشعراء: ١٠ - ٤٨}

في هذا المشهد الرهيب الذي واجه فيه موسى و هارون اعنتى مجرما عرفه التاريخ الذي
غره لكه و حرسه و سلطانه حتى قال : {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [النازعات: ٢٤] وقف
موسى عليه السلام ليكشف لذلك الغر المأفون عن تلك الحقيقة التي يهرب منها - حقيقة
(لا إله إلا الله) إنها حقيقة الخالق ، و المخلوق ن الخالق الذي خلق السموات و الأرض
، إنها حقيقة الربوبية (وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ) إنها حقيقة الملكية التي لا تنبغي إلا لواحد
ألا وه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد وقف
موسى عليه السلام على أرض ثابتة قد أيده الله بالآيات و خوارق العادات، ولم لا وهو الملقب
بالقوي الأمين هدده فرعون بالسجن، و تلك هي سنة الطغاة مع أولياء الرحمن و لكن
ذلك لم يفل عزمه و لم يوهن قوته بل طلب منه أن يكون الأمر علانية {قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ
الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخْشَرَ النَّاسُ ضُحًى} [طه: ٥٩] فذهب فرعون : {فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ
مَّعْلُومٍ} {الشعراء: ٣٨}

قال القاسمي-رحمه الله-: ولما وثوا من فرعون: **{قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى}** [طه: ٦٥] قيل: خيروا موسى إظهار للجلادة فلم يبالوا بتقدمه أو تأخره

قال: ألقوا، فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم: **{قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ}** [الأعراف: ١١٦] وإنما سوغ لهم التقدم ازدراء لشأنهم وقلة مبالاة بهم وثقة بما كان بصدده من التأييد الإلهي وأن المعجزة لن يغلبيها سحر أبدا: **{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ}** [الأعراف: ١١٧ - ١١٩]

يقول صاحب (الظلال) عليه رحمة الكبير المتعال _ إنه الباطل ينتفش، ويسحر العيون، ويسترهب القلوب، ويخيل إلى الكثيرين أنه غالب، وأنه جارف، وأنه محيق! وما هو إلا أن يواجه الحق الهادئ الواثق حتى ينفض كالفقاعة، وينكمش كالقنفذ، وينطفئ كشعلة الهشيم! وإذا الحق راجح الوزن، ثابت القواعد، عميق الجذور .. والتعبير القرآني هنا يلقي هذه الظلال، وهو يصور الحق واقعا ذا ثقل: **{فوقع الحق}** .. وثبت، واستقر .. وذهب ما عداه فلم يعد له وجود: **{وبطل ما كانوا يعملون}** .. وغلب الباطل والمبطلون وذلوا وصغروا وانكمشوا بعد الزهو الذي كان يبهر العيون:

{فَغَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ} .. ولكن المفاجأة لم تختتم بعد. والمشهد ما يزال يحمل مفاجأة أخرى .. مفاجأة كبرى .. **{وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ. قَالُوا: آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ}** .. إنها صولة الحق في الضمائر. ونور الحق في المشاعر، ولمسة الحق للقلوب المهيأة لتلقي الحق والنور واليقين .

إن السحرة هم أعلم الناس بحقيقة فنهم، ومدى ما يمكن أن يبلغ إليه. وهم أعرف الناس بالذي جاء به موسى إن كان من السحر والبشر، أم من القدرة التي وراء مقدور البشر والسحر. والعالم في فنه هو أكثر الناس استعدادا للتسليم بالحقيقة فيه حين تتكشف له، لأنه أقرب إدراكا لهذه الحقيقة، ممن لا يعرفون في هذا الفن إلا القشور.. ومن هنا تحول السحرة من التحدي السافر إلى التسليم المطلق، الذي يجدون برهانه في أنفسهم عن يقين.. ولكن الطواغيت المتجبرين لا يدركون كيف يتسرب النور إلى قلوب البشر ولا كيف تمازجها بشاشة الإيمان ولا كيف تلمسها حرارة اليقين. فهم لطول ما استعبدوا الناس يحسبون أنهم يملكون تصريف الأرواح وتقليب القلوب" (١)

الصورة الثانية - هلا فرعون ونجاة موسى عليه السلام

خرج موسى عليه السلام وبنوا إسرائيل من مصر بأمر الله تعالى ، حيث قال المولى سبحانه و تعالى : { وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } [الشعراء: ٥٢ -

[٦٨

(١) - في ظلال القرآن (٣/ ١٣٥٠)

وهكذا خرج فرعون بحده وحديده لمحاربة موسى عليه السلام ومن آمن معه ، فلما تراءى الجمعان و ظهر لكل ذي عينين أن فرعون وراءهم و البحر أمامهم فليس أمامهم سوى البحر ، و هنا شكوا لموسى عليه السلام ، و هنا يظهر الثبات على الإيمان و الثقة بنصر الرحمن ، لم يعبأ موسى بهذا الجيش العرمرم ، فقال لهم : إن كان فرعون مع أعوانه و جنوده و نحن قلة فالله معنا و من كان الله معه فمعه القوة التي لا تغلب ، و الحارس الذي لا ينام و الهادي الذي لا يضل ، قال موسى عليه السلام : فلما تراءى الجمعان جاء المدد من صاحب العون : (قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) هنا انتهت المشكلة فلم يقل له : اضرب بدرعك ولا بسيفك ولا برمحك ، لأن النصر لا يعتمد على قوة السلاح ، وإنما يعتمد على قوة الإيمان و ثبات الأركان فالسلاح بضاربه لا يحده ، و النصر للتعوى ، فإذا انعدمت التقوى كان الانتصار للأقوى ، إنها العصا معجزة معجزات موسى عليه السلام : { اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَيْنًا } [البقرة: ٦٠] انحلت المشكلة الاقتصادية و ذلك لأن حامل العصى عنده يقين و إيمان و عقيدة ، فأين حامل القرآن و هو كلام الرحمن ؟ { أَنْ أَلْقِي عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ } [الأعراف: ١١٧] فاذا النصر و التمكين و إذا الهزيمة الساحقة { أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ } [الشعراء: ٦٣] هذا هو تأثير العصى في البحر جعلته كالطود ، فأين تأثير القرآن الذي لو أنزله على جبل لكان حاله كما أخبر سبحانه و تعالى : { لَوْ أَنزَلْنَاهُ الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [الحشر: ٢١]

فيا ليت الأمة الإسلامية تعود إلى دستورها الأوحـد القرآن والسنة حتى تثبت على إيمانها وينصرها الله على أعدائها.

خامسا: نبي الله دنيال عليه السلام

تلك الصورة لنبي من أنبياء بني إسرائيل تعرض له ذلك الملك الذي سفك كثيرا من الدماء الذي لا يعرف دينا ولا ربا إنه الطاغية " بختنصر " قام ليقض على ذلك النبي، و أودعه في السجن ثم بعد ذلك أخذ أسدين فجوعهما ثم أدخلهما عليه و بعد مرور خمسة أيام فتح السجن فوجد دنيال قائما يصلي و الأسدين لم يعرضا له، فقال له بختنصر : أخبرني ماذا قلت فدفع عنك ؟

قال: قلت " الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، الحمد لله الذي لا يخيب من رجاءه، الحمد لله الذي لا يكل من توكل عليه إلى غيره، الحمد لله الذي هو ثقتنا حين تنقطع عن الحيل، الحمد لله الذي هو رجاؤنا حين يسوء ظننا بأعمالنا، الحمد لله يكشف ضرنا، الحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاة " ^(١)

إنه الإيمان بالله سبحانه وتعالى، إنه الثبات على الإيمان حتى الممات، لجأ إليه فهو الحميد الذي لا يضيع من وقف على بابه ولاذ بجنابه، إنه وقف يصلي ولم يلتفت إلى تلك الوحوش الضارية الجائعة ولسان حاله:

رضاك رضاك يا مولاي عني فهل يرضيك أن قدمت نفسي

ذبحت الروح فيك وكل ذبح لغير هداك مقرون بنحس

^(١) - البداية و النهاية (ج ١ ص ٤٢٨)

سادسا: صور من ثبات النبي ﷺ

رسول الله ﷺ أعطى للدعاة في كل زمان ومكان المثل الأعلى في التضحية والصبر والثبات، فإن المشركين في مكة سلكوا مع النبي ﷺ مسالك شتى في الأذى وأساليب متباينة في الاضطهاد ليشنوه عن دعوته وأداء رسالته فما ضعف وما استكان.

* سلكوا معه طريق الهمز والسخرية وإشاعة التهم ليصدوه عن تبليغ الدعوة فما ضعف وما استكان.

* سلكوا معه طريق الإغراء والإغواء ليصدوه عن تبليغ الدعوة فما ضعف وما استكان.

* سلكوا معه طريق المقاطعة الاقتصادية الشاملة له ولمن آزره ليصدوه عن تبليغ الدعوة فما ضعف وما استكان.

وقرروا أخيرا اغتياله وملاحقته ليصدوه عن تبليغ الدعوة فما ضعف وما استكان، وكان الشعار الذي رفعه ﷺ في مكة " والله يا عم لو وضعوا الشمس في يمين والقمر في شمالي على أن اترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه "

وبعد الهجرة حاربه المشركون بحملات متعددة وحروب طاحنة ليستأصلوا دعوته وأتباعه فما كان ذلك يرده عن تبليغ الدعوة ونشرها ﷺ.

وبقي ﷺ يكافح في سبيل الله ويجاهد لإعلاء دينه ويصبر على الأذى والمؤامرات والاعتداء حتى جاء نصر الله والفتح وقامت دولة الإسلام عزيزة كريمة " (١)

*ويقول القاضي عياض -رحمه الله - : وأما الشجاعة والنجدة: فالشجاعة فضيلة قوة الغضب وانقيادها للعقل، والنجدة ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت حيث يحمد

(١) - دور الشباب في حمل رسالة الإسلام (ص: ٣٦-٣٧)

فعلها دون خوف، وكان ﷺ منهما بالمكان الذي لا يجهل قد حضر المواقف الصعبة وفر الكماة والأبطال عنه غير مرة وهو ثابت لا يبرح ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح، وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة وحفظت عنه جولة سواه.

عن البراء وسأله رجل: أفررتم يوم حنين عن رسول الله ﷺ؟ قال لكن رسول الله ﷺ لم يفر ثم قال لقد رأيته على بغلته البيضاء وأبو سفيان أخذ بلجامها والنبي ﷺ يقول: أنا النبي لا كذب، وزاد غيره: أنا ابن عبد المطلب^(١)

قيل فما روى يومئذ أحد كان أشد منه، وقال غيره نزل النبي ﷺ عن بغلته، وذكر مسلم عن العباس قال فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين فطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته نحو الكفار وأنا أخذ بلجامها أكفها إرادة أن لا تسرع وأبو سفيان أخذ بركابه ثم نادى يا للمسلمين - الحديث - وقيل كان رسول الله ﷺ إذا غضب ولا يغضب إلا لله - لم يقم لغضبه شيء.

وقال ابن عمر ما رأيته أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أَرْضَى من رسول الله ﷺ.

، وقال على رضى الله عنه إنا كنا إذا حمى البأس ويروى اشتد البأس واحمرت الحديق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ولقد رأيته يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو كان من أشد الناس يومئذ بأسا^(٢)

وقيل كان الشجاع هو الذي يقرب منه ﷺ إذا دنا العدو لقربه منه.

(١) - أخرجه البخاري في: ٥٦ كتاب الجهاد: ٩٧ باب من صف أصحابه عند الهزيمة ونزل عن دابته واستنصر

(٢) - مسند أحمد، تحقيق الشيخ شاكر ٢ / ٦٤ رقم ٦٥٤.

وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح، ومجمع الزوائد ٩ / ١٢.

عن أنس رضي الله عنه، قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ وَأَشْجَعَ النَّاسِ، وَلَقَدْ فَرَعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَيْلَةً، فَخَرَجُوا نَحْوَ الصَّوْتِ، فَاسْتَقْبَلَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ اسْتَبْرَأَ الْخَبَرَ وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ، لِأَبِي طَلْحَةَ، عُرِيٍّ، وَفِي عُنُقِهِ السَّيْفُ، وَهُوَ يَقُولُ: لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُرَاعُوا ثُمَّ قَالَ: وَجَدْنَاهُ بَحْرًا أَوْ قَالَ: إِنَّهُ لَبَحْرٌ. ^(١)

وقال عمران بن حصين ما لقي رسول الله ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب ولما رآه أبي بن خلف يوم أحد وهو يقول أين محمد لا نجوت إن نجا وقد كان يقول للنبي ﷺ حين اقتدى يوم بدر عندي فرس أعلفها كل يوم فرقا من أليس قد قال أنا أقتلك والله لو بصق على لقتلني فمات بسرف في قفولهم - رجوعهم - إلى مكة. ^(٢)

ومن صور ثباته ﷺ ثباته أمام تلك العروض المغرية التي بذلها له أهل مكة :

يقول الشيخ أحمد فريد - حفظه الله -: ولما أكثر المشركون من التعذيب والاستمرار في السخرية بالمسلمين رجاء أن يصددهم ذلك عن دينهم ، و كان المسلمون لا يزدادون بذلك إلا إيمانا و يقينا ، و لم يفلحوا في ذلك لجأوا إلى أسلوب آخر - بلغة العصر - أكثر دبلوماسية - فأرادوا أن يعرضوا على النبي ﷺ عروضاً لعله يرجع عما هو عليه أو يتنازل عن بعض الحق الذي يدعو إليه .

فمن تلك العروض أنهم أرسلوا عتبة بن ربيعة ليعرض على رسول الله ﷺ ما قد رآه حلاً للمشكلة فقال: فقال يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من السُّطَّةِ في العشيرة والمكان في النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أمورا

^(١) - أخرجه البخاري في: ٥٦ كتاب الجهاد: ٨٢ باب الحمائل وتعليق السيف بالعنق

^(٢) - الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ١٠٦-١٠٨)

تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها . قال فقال له رسول الله ﷺ قل يا أبا الوليد أسمع قال يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ؛ وإن كان هذا الذي يأتيك رثيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه أو كما قال له . حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال نعم قال فاسمع مني ؛ قال أفعل فقال بسم الله الرحمن الرحيم {حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) } [فصلت: ١ - ٧] حتى وصل إلى قوله تعالى {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ} [فصلت: ١٣]

الفوائد والآثار الإيمانية:

قال الجزائري إن لهذه المقطوعة من نتائج وعبرنا نجملها الآتي:

- ١- إثبات حيرة المشركين إزاء الدعوة المحمدية وإلى اليوم
- ٢- بيان استعمال المشركين أسلوب المساومات لإحباط الدعوة وإطفاء نورها.
- ٣- ثبات النبي ﷺ ووقوفه كأنه جبل أشم أمام المساومات والتحديات.

٤- ولا شك أن هذا العرض المغربي لو عرض اليوم على أصحاب الحل البرلماني لقالوا: ذلك ما كنا نبغي، يكون لنا الحكم والسلطان ثم نطبق شرع الله - عز وجل - ولكن النبي ﷺ يعلم أن مقابل ذلك ثمن باهظ وهو المداهنة في قضية التوحيد أخطر قضية في الدين، وهي لا تقبل المداهنة، فطريق الرسل هو البداية بإصلاح القلوب والجوارح ثم بعد ذلك يفتح الله عز وجل عليهم أسباب العزة والنصر والتمكين.

٥- عدم قبول هذه العروض و الدخول في مساومات الكفار داخل لا شك في أمر الله-- عز وجل - لنبيه ﷺ {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [الحجر: ٩٤] فالإعراض عن المشركين يشمل الإعراض عن عروضهم ومساوماتهم ونلاحظ أن النبي ﷺ لم يناقش اقتراحاته فهي أسقط أذل من أن يناقشها النبي ﷺ ولكنه وجد فرصة لأن يدعو إلى الله - عز وجل - ويقرأ عليه القرآن و القلوب المستعدة للإيمان المهيأة له تنقاد وتلين به ، أم القلوب القاسية فإنها لا تتأثر ولا تزداد إلا غيا و ضلالا .^(١)

ويقول عبد الله ناصح علوان -حفظه الله- تعالوا ننأسى بقدوة الثبات على المبدأ التي كانت صفة لازمة من صفاته ﷺ و خلقا أصيلا من أخلاقه ﷺ ، فما كان يصده عن دعوته الرياح الهوج مهما عصف وما كان يرده عن تبليغ الرسالة الإسلامية الإحن السود مهما اشتدت ، وكلما اشتدت الأهوال ونزلت في ساحته المصائب ازداد صلابته وإيمان و امتلاؤه عزيمة و يقينا ، فلا يجد من سبيل سوى أن يناجي ربه داعيا و يستعطفه راحما ، و يرجوه ناصرا و يقول : "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي و قلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين، وأنت ربي. إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أو إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي. ولكن عافيتك

(١) - وقفات تربوية مع السيرة النبوية (ص: ٨٨-٨٩)

هي أوسع لي... أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا
والآخرة من أن ينزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك. لك العتبى حتى ترضى. ولا
حول ولا قوة إلا بك" ..(١)(٢)

(١) - انظر سيرة بن هشام (٣٣ / ٢) - البداية والنهاية (١٤٧ / ٣) - زاد المعاد (٢٨ / ٣) - ودلائل النبوة لأبي نعيم (١ / ٢٩٦).

(٢) - حتى يعلم الشباب (٣٥)

الفصل الثاني

ثبات أتباع الأنبياء والرسل ممن كان قبلنا

أولاً: ثبات أصحاب الأخدود

تلك القصة هي ملحمة من ملاحم الصبر والثبات على الإيمان، إنها استهانة بكل غال ونفيس في سبيل الإيمان بالله سبحانه وتعالى... إنها التضحية والفداء.

إنها حقيقة الإيمان التي لا تزول ولا تتزلزل مهما كانت الضغوط... إنها الإيمان يتجلى في صور من الصمود أمام الباطل، إنها ملحمة الشهداء الذين كتبوا قصتهم بالدم وقدموها إلينا حتى نقتدي بهم، وحتى لا نرهب طاغوتا ولا ظالما.... ذكرها الله لنا في القرآن لتكون إحدى المثبتات على طريق الإيمان الذي رسمه سبحانه لنا.... إنه ليس مفروشا بالورود والزهور، وإنما هو طريق كله عقبات.... دماء وأشلاء صراخ وعويل... قتل وتشريد... حبس وتجويع.... على جنات صراخ اليتامى، وعويل الثكالى، فمن سلك ذلك الطريق فليوطن نفسه على الابتلاء والصبر والمصابرة.... وهيا لنرى تلك القصة

كما يرسم مشاهدتها سبحانه وتعالى: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قَتَلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ

(١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ { [البروج: ١ - ١٣]

إن النعمة القرآنية في تلك القصة نعمة حزينة باكية تصور في حروفها و مجموع كلماتها تلك الملحمة التي ثبت أبطالها أمام ذلك الطغيان ، و أمام ذلك العدوان ، و كانت الجريمة التي ارتكبتها هؤلاء في زعم هؤلاء الطغاة ، أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد وها هم أحفاد هؤلاء الطغاة نراهم كل يوم في فلسطين و كشمير و البوسنة و كوسوفا و غيرها من بلاد المسلمين و جريمتهم أنهم مسلمون موحدون لله تعالى ، و هيا لنشاهد أحداث هذه القصة مرة ثانية مع النبي ﷺ روى مسلم عن صُهَيْبٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ، قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَأَبْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أَعْلَمُهُ السَّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يَعْلَمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ، إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ، فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرًّا بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرَ أَفْضَلَ أَمْ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجْرًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَفَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيُّ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ، وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسُ الْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَأَمَّنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ

رَبُّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَجِيءَ
بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيُّ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ
وَتَفْعَلُ، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى
الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمِشَارِ، فَوَضَعَ الْمِشَارَ
فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّه حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤُهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ،
فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّه بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤُهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ
ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلٍ كَذَا وَكَذَا،
فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ، فَذْهَبُوا بِهِ
فَصَعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَارْجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ
يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ
مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ
وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ، فَذْهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَعَرِقُوا،
وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ، فَقَالَ
لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمْرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي
صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِدْعٍ، ثُمَّ اخُذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَمَّ السَّهْمَ فِي كَبِدِ
الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلَّ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ
النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِدْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي
كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ
فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا
بِرَبِّ الْغُلَامِ، فَأَتَى الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذْرُكَ، قَدْ آمَنَ
النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السَّكَكِ، فَخُدَّتْ وَأُضْرِمَ النَّيرانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ

دِينِهِ فَأَخْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتْ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمِّهِ اصْبِرِي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ" (١)

مواطن الثبات في القصة:

* ثبات الراهب وجليس الملك: حيث أنهمم وضعوا في رأسهما المنشار وشقوهما نصفين، وعلى الرغم من شدة العذاب إلا أنه عند المؤمنين عذب وحلو حالهما:

نسيت في حبك الدنيا وما حملت وبعث من أجلك الأنفاس والنفسا

* ثبات الغلام: ويظهر الثبات في مواطن منها ثباته عندما صعدوا به الجبل فهم رجال أشداء مسلحين وهو ما زال غلاما، ولكنه امتلأ قلبه بالإيمان فهو واثق بنصر الله تعالى وأن النصر من عند الله، فكان سلاحه في هذه المواطن "اللهم اكفينهم بما شئت" إنه رسوخ الإيمان بالله الواحد الديان.

* ومن ثباته رضي الله عنه: أنه لم يهرب من ميدان المعركة لا في المرة الأولى ولا في الثانية لأنه يعلم أنه صاحب دعوة وأنه حمل أمانة لا بد أن يبلغها للناس بل عاد إلى الملك في تحد لذلك الطغيان.

* ومن ثباته: أنه أوضح لذلك الملك الطاغية عجزه وضعفه وأنه لا يملك نفعا ولا ضرا فيكيف يكون إلها يعبد من دون الله، فلو كنت إلها حقا لقتلتني ولكنك عاجز كل العجز.

* ومن ثباته أيضا: أنه أوضح له الطريق التي بها يستطيع أن يتخلص منه فأمره أن يجمع الناس في صعيد واحد و يأخذ سهمًا من كنانته - يعني الغلام - وليست من كنانة الملك وأن يضع السهم في كبد القوس - وكأنه أبله لا يعرف أين يوضع السهم و ذلك أبلغ في

(١) - أخرجه : مسلم ٢٢٩/٨ (٣٠٠٥) .

احتقاره - ثم أمره أن يقول و يقر إقرار المضطر أمام جميع الناس بأن النافع الضار هو الله " بسم رب الغلام " ففعل الملك ومات الغلام ولكن ما ماتت دعوته فأمن الناس جميعا و قالوا في نفس واحد: آمنا برب الغلام.

* ثبات الناس واختيارهم نار الدنيا على نار الآخرة: حيث أن الناس أخذوا يقتحمون أفرادا وجماعات في ذلك الدين الأخدود فهي كانت في الظاهر نار محرقة إلا أنها عند المؤمنين روضة من رياض الشهادة في سبيل الله، أما هؤلاء الذين أجرموا فقد أعد الله لهم نارا تلظى.

يقول سيد قطب - رحمه الله - {إِنَّ الَّذِينَ قَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} .. ومضوا في ضلالتهم سادرين ، لم يندموا على ما فعلوا {ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا} .. {فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ الْحَرِيقِ} .. وينص على {الْحَرِيقِ} .. وهو مفهوم من عذاب جهنم. ولكنه ينطق به وينص عليه ليكون مقابلا للحريق في الأخدود. وبنفس اللفظ الذي يدل على الحدث. ولكن أين حريق من حريق؟ في شدته أو في مدته! وحريق الدنيا بنار يوقدها الخلق. وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق! وحريق الدنيا لحظات وتنتهي، وحريق الآخرة آباد لا يعلمها إلا الله! ومع حريق الدنيا رضى الله عن المؤمنين وانتصار لذلك المعنى الإنساني الكريم. ومع حريق الآخرة غضب الله، والارتكاس الهابط الذميم!^(١)

(١) - في ظلال القرآن - (٦/ ٣٨٧٤)

ثانيا - ثبات امرأة فرعون

أما الصورة الثانية من صور الثبات على الإيمان أمام الطغاة فهي صورة لامرأة عاشت في بيت أكبر طاغية بل في بيت أكبر كافرا بالله في بيت رجل قال { أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى } [النازعات: ٢٤]: وذكرتها ليعلم الجميع أن الإيمان متى استقر في القلب فإنه لا يفرق بين الرجل أو امرأة، بين صغير أو كبير، وبين ضعيف أو قوي، و ليعلم الجميع أن النساء محاضن الأبطال.

أخرج البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كَمَلْ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَسِيَّةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ" (١)

قال ابن حجر - رحمه الله - : ومن فضائل آسية امرأة فرعون أنها اختارت القتل على الملك والعذاب في الدنيا على النعيم الذي كانت فيه " (٢)

وقال ابن كثير - رحمه الله - : كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة. (٣)

(١) - أخرجه البخاري في: ٦٠ كتاب الأنبياء: ٣٢ باب قول الله تعالى (وضرب الله مثل للذين آمنوا)

(٢) - فتح الباري - ابن حجر (٦/ ٤٤٨)

(٣) - تفسير ابن كثير - ط دار طيبة (٨/ ١٧٢)

قال ابن جرير: كانت امرأة فرعون تسأل من غلب؟

فيقال: غلب موسى وهارون. فتقول: آمنت برب موسى وهارون؛ فأرسل إليها فرعون، فقال: انظروا أعظم صخرة تجدونها، فإن مضت على قولها فألقوها عليها، وإن رجعت عن قولها فهي امرأته؛ فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء، فأبصرت بيتها في السماء، فمضت على قولها، فانتزع الله روحها، وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح.^(١)

وقفة ثبات:

وها هي ذي امرأة فرعون، لم يصددها طوفان الكفر الذي تعيش فيه .. في قصر فرعون .. عن طلب النجاة وحدها وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتا في الجنة. وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربها النجاة منه. وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء وهي ألصق الناس به: **{وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ}** وتبرأت من قوم فرعون وهي تعيش بينهم: **{وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}** ..

وتبرأت من قوم فرعون وهي تعيش بينهم: **{وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}** ..

ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثل للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا في أزهى صورته. فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ. في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي .. ولكنها استعلت على هذا بالإيمان. ولم تعرض عن هذا العرض فحسب ، بل اعتبرته شرا وذنبا وبلاء تستعيز بالله منه ، وتتفلت من عقابيله ، وتطلب النجاة منه! وهي امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية .. وهذا فضل آخر عظيم. فالمرأة - كما أسلفنا - أشد شعورا وحساسية بوطأة المجتمع وتصوراته. ولكن هذه المرأة .. وحدها .. في وسط

(١) - تفسير الطبري-ط الرسالة-ت أحمد شاكر (٢٣/ ٥٠٠)

ضغط المجتمع، وضغط القصر، وضغط الملك، وضغط الحاشية، والمقام الملوكي.
في وسط هذا كله رفعت رأسها إلى السماء .. وحدها ..
في خضم هذا الكفر الطاغوي! وهي نموذج عال في التجرد لله من كل هذه المؤثرات وكل
هذه الأواصر، وكل هذه المعوقات، وكل هذه الهواتف. ومن ثم استحقت هذه الإشارة
في كتاب الله الخالد. الذي تتردد كلماته في جنبات الكون وهي تنزل من الملاء الأعلى ..
وإفراد امرأة فرعون بالذكر هنا مع مريم ابنة عمران يدل على المكانة العالية التي
جعلتها قرينة مريم في الذكر. بسبب ملابسات حياتها التي أشرنا إليها.^(١)

^(١) - في ظلال القرآن (٦/ ٣٦٢١)

ثالثا - ثبات ماشطة فرعون

وعلى الطريق الإيمان وعلى طريق التضحية سار المؤمنون والمؤمنات بذلوا في سبيله
المُهَج والأرواح، ومن بين هؤلاء امرأة ولكنها ضربت أروع الأمثلة في الثبات على المبدأ
واليقين بما أعد الله لأولائه، إنها باعت نفسها ترى لمن وفي أي مكان؟

إنها لم تبعه مثل كثير من نساء عصرنا في سوق النخاسة وفي سوق التبرج والسفور فكم
رأينا امرأة باعت عفتها من أجل الحصول على المال، أو من أجل الوظيفة أو من أجل
الشهادة، باعت دينها بعرض من الدنيا قليل... ولكن بطلت تلك القصة ثبتت ولم تنزع
ولم تتحرك عن إيمانه قيد أنملة، إنها ماشطة ابنة فرعون وما أدراك ما فرعون؟

قال: أنا ربكم الأعلى !!!

فعن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: " لما أسري بي مرت بي رائحة طيبة، فقلت:
ما هذه الرائحة؟

قالوا: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها كانت تمشطها فوق المشط من يدها،
فقلت: بسم الله، فقلت ابنته: أبي؟

فقلت: لا، قالت: بل ربي وربك ورب أبيك، فقلت: أخبر بذلك أبي؟

قالت: نعم، فأخبرته، فدعا بها وبولدها، فقال: ألك رب غيري؟

فقلت: نعم، ربي وربك الله، وأظنه قال: فأمر بنقرة من نحاس فأحميت، ثم أمر بها لتلقى فيها، فقلت: لي إليك حاجة، قال: وما هي؟

قلت: أن تجمع عظامي وعظام ولدي فتدفنها جميعا.

فقال: ذلك لك لما لك علينا من الحق، فأتى بأولادها فألقى واحدا واحدا حتى إذا كان آخر ولدها وكان صبيا مرضعا، فقال: اصبري يا أمه، فإنك على الحق، ثم ألقيت مع ولدها " (١)

وذهب فرعون وجنده لا يذكرون إلا بالكفر والطغيان، وبقي ذكرها وإيمانها نبراسا يضيئ الطريق للمؤمنين.

(١) - أخرجه أحمد (٣٠٩/١)، رقم (٢٨٢٢)، والطبراني (٤٥٠/١١)، رقم (١٢٢٧٩)

رابعاً - ثبات سحرة فرعون على الإيمان

و من صور الثبات على الإيمان ثبات سحرة فرعون الذين استأجرهم فرعون لمواجهة موسى عليه السلام : { فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ } [طه: ٦٠، ٦١] و لكم القوم تواطؤوا على الكفر { فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ } [طه: ٦٢] ولا بد من إشاعة التهم الباطلة ضد الحق وأنصاره لصرف الناس عنه وحشد جميع القوى للوقوف في وجه الحق، وهذا دأب الجاهلية الحديثة

المواجهة:

و نلمح بعد ذلك المواجهة و قد حشد لها الناس و لعل ذلك من قدرة الله - سبحانه و تعالى لإقامة الحجة على الجميع كما حدث في حادثة أصحاب الأخدود { قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدِّنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا تَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلِّبْنَكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ } [الشعراء: ٤٣ - ٥١]

{ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦) } [طه: ٧٢ - ٧٦]

إن موقف السحرة جدير بالوقوف عنده فمنذ لحظة كانوا مأجورين ينتظرون الجزاء من فرعون على مهارتهم ، و لم يكونوا أصحاب عقيدة و لا قضية ، و لكن الحق الذي مس قلوبهم قد حولها تحويلا ، و لقد كانت هزة رجتهم رجا ووصلت إلى أعماق نفوسهم وقرارة قلوبهم فأزالت عنها ركام الضلال و جعلتها صافية حية خاشعة للحق عامرة بالإيمان في لحظات قصار فإذا هم يجدون أنفسهم سجدا (قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ) إن القلب البشري لعجيب غاية العجب فان لمسة واحدة تصادف مكانها لتبدله تبديلا وصدق ﷺ (ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن . أن شاء أقامه وإن شاء أزاعه)^(١)

وهكذا انقلب السحرة المأجورون مؤمنين من خيار المؤمنين على مرأى ومسمع من الجماهير الحاشدة ومن فرعون وملائه أو كما يقول ابن كثير والظاهر من هذا السياق إن فرعون - لعنه الله- صلبهم وعذبهم رضي الله عنهم قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير: كانوا في أول النهار سحرة فصاروا في آخرة شهداء بررة ويؤيد هذا قولهم: { أَفْرَغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ } [الأعراف: ١٢٦]

(١) - أخرجه أحمد (١٨٢/٤ رقم ١٧٦٦٧) ، وابن ماجه (٧٢/١) ، رقم ١٩٩ قال البوصيرى (٢٧/١) : هذا إسناد صحيح

وهنا نلمح الطغيان وقد وقف عاجزا أمام الإيمان وأمام الاطمئنان، وقف عاجزا أمام القلوب التي خيل إليه أنه يملك الولاية عليها كما يملك الولاية على الرقاب ويملك التصرف فيها كما يملك التصرف في الأجسام، فإذا هي مستعصية عليه لأنها من أمر الله لا يملك أمرها إلا الله.

إنه موقف من المواقف الحاسمة في تاريخ البشرية ، هذا الذي كان بين فرعون و ملائه و المؤمنين من السحرة السابقين يتمثل في انتصار العقيدة على الحياة و انتصار العزيمة على الألم و انتصار الإنسان على الشيطان ، و فيه بدأ ميلاد الحرية الحقيقية فما الحرية إلا الاستعلاء بالعقيدة على جبروت المتجبرين و طغيان الطغاة و الاستهانة بالقوة المادية التي تملك أن تتسلط على الأجسام و الرقاب و تعجز أ عن استدلال القلوب و الأرواح ، و فيه يدوا أيضا إفلاس المادية ، فهذه القلة التي كانت منذ لحظة تسأل فرعون الأجر على الفوز و تمنى بالقرب من السلطان هذه ذاتها التي تستعلي على فرعون و تستهين بالتهديد و الوعيد و تقبل صابرة محتسبة على التنكيل و التعذيب" ^(١)

ويقول العلامة محمد رشيد رضا-رحمه الله - " وقد ختم تعالى ما قصه هنا من كلام السحرة بهذا الدعاء فنذكره تالين داعين: ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين أي: ربنا هب لنا صبرا واسعا تفيضه وتفرغه علينا إفرغا بتثيتك إيانا على الإيمان، وتأيدنا بروحك فيه كما يفرغ الماء من القرب، حتى لا يبقى في قلوبنا شيء من خوف غيرك، ولا من الرجاء فيما سوى فضلك ونوالك. وتوفنا إليك حال كوننا مسلمين لك مدعين لأمرك

^(١) - أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ ذرية إبراهيم صلى الله عليه وسلم والمسجد الأقصى

ونهيك، مستسلمين لقضائك، غير مفتونين بتهديد فرعون، وغير مطيعين له في قول ولا فعل.

جمعوا بدعائهم هذا بين كمال الإيمان والإسلام.

يدل على ما قررناه من المبالغة في طلب كمال الصبر - تنكيهه والتعبير عن إيتائه بالإفراغ ، وهو صب الماء الكثير من الدلو ونحوه ، وأما تصويرنا لحصول ذلك بقوة الإيمان فمأخذه من العقل والتجارب : أن الصبر من صفات النفس ، وهو عبارة عن قوة فيها على احتمال الآلام والمكارم بغير تبرم ولا حرج يحملها على ما لا ينبغي من ترك الحق أو اجتراح الباطل ، ولا شيء كالإيمان بالله والخوف منه ، والرجاء فيه يقوي هذه الصفة في النفس ، ومأخذه من النقل آيات كقوله تعالى في بيان المؤمنين الذين عملوا الصالحات فوجبت لهم الجنة : **{الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون}** وقوله فيهم **{وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}** [العصر: ٣] ومما يناسب المقام قوله : **{فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}** [آل عمران: ١٧٥]

ولدينا من نُقول التاريخ القديم والحديث ما يؤيد ذلك، وقد صرح الذين كتبوا أخبار الحروب الأخيرة بعزلها وفلسفتها: أن المؤمنين بالله وباليوم الآخر من جميع الملل أعظم شجاعة، وأشد صبرا على مشاق الحرب من غيرهم؛ ولذلك يحرص أوسع الناس علما بسنن الخلق، وأشدهم عناية بفنون الحرب - كالشعب الألماني - على المحافظة على الدين في جيشهم" (١)

(١) - تفسير المنار (٩ / ٦٧)

خامسا - ثبات أصحاب الكهف

يقول الله سبحانه و تعالى { أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا } [الكهف:

[١٦- ٩]

قال محمد بن إسحاق -رحمه الله: طغى أهل الإنجيل و كثرت فيهم الخطايا حتى عبدوا الأصنام و ذبحوا لها و بقي فهم من هو على دين المسيح متمسكا بدينه و بعبادته لله وحده و كان بالروم ملك يقال له (دقيانوس) عبد الأصنام و ذبح للطواغيت و كان يحمل

الناس على ذلك و يقتل من خالفه فمر بمدينة أصحاب الكهف و هي من الروم يقال لها (أفسوس) ولما مر دقيانوس بالمدينة اختفى منه أهل الإيمان فكان يبعث أعوانه ليحضروهم فيخبروهم بين الشرك و القتل إلى أن استدعى الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم هدى و طلب منهم أن يشركوا وأن يذبحوا للطواغيت فامتنعوا فهددهم بالقتل فربط الله على قلوبهم و ثبتهم على التوحيد ، ثم بدا له فأمهلهم ليراجعوا أنفسهم في مصيرهم ثم إن الإمبراطور رحل إلى مدينة أخرى لبعض شأنه ثم عاد ليطلبهم فلم يجدهم فقد فروا بدينهم من فتنة الشرك و اعتزلوا المشركين ، وأووا إلى كهفهم ومعهم بعض النقود و بعض الطعام و معهم رقيمهم (كتابهم المرقوم الذي فيه معتقدهم) و تذكر كتب التفاسير أنهم دخلوا الكهف و معهم كلب لهم فلما طلبهم الإمبراطور دعوا الله { رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا } [الكهف: ١٠] و ناموا فكانت النومة التاريخية التي صارت مضرب المثل { فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا } [الكهف: ١١] و كان باب كهفهم إلى جهة الشمال و ذلك من رحمة الله تعالى بهم حتى لا يؤذيهم شروق الشمس و لا غروبها ، و قلبهم على جنوبهم ذات اليمين و ذات الشمال لئلا تبلى أجسامهم { وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّامِلِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ } [الكهف: ١٨] و في ذات الوقت تأكيداً لحياتهم ، ثم بعث الله الفتية ليتساءلوا بينهم كم لبثوا ؟

و في حرة من أمرهم قالوا { قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ } [الكهف: ١٩] و في تسليم لله قالوا { { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) } [الكهف: ١٩] ، و حذروه { إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا } [الكهف: ٢٠] و خرج المتلطف الحذر فرأى كل شيء و قد تغير و دفع ما معه من النقود إلى رجل

يبيع الطعام فتعجب التاجر لأن هذه العملة كانت على عهد دقيانوس و قد هلك هذا الطاغية المشرك و بقيت تحمل اسمه ، وشاع الخبر في المدينة و حولها و اجتمع الناس من هنا و هناك ليروا هذه الآية {وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ} [الكهف: ٢١] و هكذا تظهر حكمة الله التي خفيت و ينكشف سر الغيب الذي ادخره الله ليظهر في حينه ، لقد بعث أهل الكهف ليعلم الناس أن وعد الله حق و أن الساعة لا ريب فيها و كانوا من قبل بين منكر و مصدق فجاء العثور على أهل الكهف حجة قاطعة و برهانا ساطعا على البعث و الحياة الآخرة

وقفة ثبات:

١ - الفرار بالدين سنة من سنن الأنبياء و الرسل و أتباعهم : يقول الشيخ سعيد عبد العظيم - حفظه الله - : و هي صريحة في الفرار بالدين و هجر الأهل و البنين و القربات و الأصدقاء و الأوطان و الأموال خوف الفتنة و ما يلقيه الإنسان من المنة حتى و إن اضطر الإنسان إلى سكن لجبال و دخول الغيران و العزلة عن الخلق انفرادا بالخالق من الظالم ، فهذه سنة الأنبياء - صلوات الله عليهم - و الأولياء و قد فضل رسول الله ﷺ العزلة و فضلها جماعة من العلماء لا سيما عند ظهور الفتن و فساد الناس و قد نص الله تعالى في كتابه فقال {فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ} [الكهف: ١٦] و الاعتزال عن الناس قد يكون في الجبال و الشعاب أو السواحل أو الرباط أو في البيوت و قد جعلت طائفة من العلماء العزلة اعتزال الشر و أهله بقلبك و عملك إن كنت بين أظهرهم .

و قال ابن المبارك: في تفسر العزلة: أن تكون مع القوم فإذا خاضوا في ذكر الله فكن معهم، وإن خاضوا في غسر ذلك فاسكت^(١)

(١) و الأولى المجانبة و المفارقة لقوله تعالى { فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ } [النساء: ١٤٠]

وروى البغوي: ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ: المؤمن الذي يخالط الناس ،
ويصبر على أذاهم ، أعظم أجرا من المؤمن الذي لا يخالط الناس ، ولا يصبر على
أذاهم. "(١)

عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ، ما النجاة؟ ، قال: "
أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك" (٢)

عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: "ليأتين على الناس زمان لا يسلم لذي
دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شأق إلى شأق ومن جحر إلى جحر
كالثعلب الذي يروغ" قالوا: ومتى ذاك يا رسول الله؟ قال: إذا لم تنل المعيشة إلا بمعاصي
الله عز وجل فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة "

قالوا: وكيف ذاك يا رسول الله، وقد أمرتنا بالتزوج؟

قال: "لأنه إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يدي أبويه، فإن لم يكن له أبوان
فعلى يدي زوجته وولده، فإن لم يكن له زوجة ولا ولد فعلى يدي قرابته "

قالوا: وكيف ذاك يا رسول الله؟

قال رسول الله ﷺ: "يعيرونه بضيق المعيشة فيتكلف ما لا يطيق حتى يورده موارد
الهلكة" (٣)

(١) - أخرجه الطبراني في الأوسط (١٠٩/٦ ، رقم ٥٩٥٣) ، والبيهقي (٨٩/١٠ ، رقم ١٩٩٦١) .

(٢) - أخرجه أحمد (٢٥٩/٥ ، رقم ٢٢٢٨٩) ، والطبراني (٢٧٠/١٧ ، رقم ٧٤١) ، والخطيب (٢٧٠/٨) .

(٣) - العزلة للخطابي (ص: ١٠)

٢- الاعتصام بالله و اللجوء إليه : هؤلاء الفتية لما أصابهم ما أصابهم توجهوا إلى الله تعالى و طلبوا منه سبحانه أن يوفقهم إلى الرشاد فقالوا { رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا } [الكهف: ١٠]

فالدعاء هو العبادة و هو أيضا سلاح المسلم عند الشدائد و المكائد، لجأ إليه الأنبياء والمرسلون عند الشدائد و أمرنا سبحانه به حيث قال { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } [غافر: ٦٠]

و يقول سبحانه { أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلِلَّهِ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ } [النمل: ٦٢]

فهؤلاء كانوا فقهاء علماء إذ لم يطلبوا من غير الله معونة ولا سندا .

٣- أنهم كانوا فتية آمنوا بربهم وزادهم الله هدى

يقول سعيد عبد العظيم : ما أشبه أصحاب الكهف بهلاء الفتية الذين صاحبوا رسول الله ﷺ كابن عمر و ابن عباس و أسامة بن زيد رافع بن خديج و معاذ بن جبل و سمرة بن جندب ، و غيرهم كثير فهم على حداثة سنهم - رضوان الله عليهم - كانوا رجالا { مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا } [الأحزاب: ٢٣] و كلهم حرص على الخير و البر و الفداء و اجتناب

المحارم و استعمال المكارم وهذه هي الفتوة الحقيقية و راسها الإيمان بالله تعالى ، و الناظر في قصة أصحاب الكهف سيجد أنهم كانوا شبابا و أحداثا و لم يمنعهم ذلك من الإيمان و الثبات على الحق إذ هذه المعاني لا تقتصر على الكبار دون الصغار ولا على الرجال دون النساء ، و لذلك ذكر ربنا جل علا أصحاب الكهف في معرض الثناء و المدح فقال { إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى } [الكهف: ١٣] فما قيمة السن الكبير

إن لم يكن زاداً لصاحبه بل كان وبالا عليه ، و ما قيمة عمر طويل مع الانحراف عن منهج الله أن السبق سبق الفضل ، و من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ، و يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فإذا كانوا في القراءة سواء فأكبرهم سناً ، وكان عمرو بن سلمة يؤم القوم و عمره سبع سنوات لكونه قارئاً ، و من السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله " شاب نشأ في طاعة الله " ، فالكل يجب عليه أن يسلم وجهه لله و يجب علينا رعاية الأبناء و إعانتهم على طاعة الله ، و الحذر كل الحذر من إضاعتهم ففي ذلك خيانة للأمانة .

إن الفارق الكبير بين أصحاب الكهف الذين عناهم سبحانه و تعالى بقوله: { إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى } [الكهف: ١٣] و بين كثير من شباب اليوم .

شباب قنع لا خير فيه و بورك في الشباب الطامعين

عيب كبير أن يربى شباب الأمة على الرقص والغناء والموسيقى وتعلم فنون الضياع ومتابعة الأدب الرخيص الذي يطلق عليه اسم الأدب المكشوف - أدب الجنس - وحفظ النظريات والمذاهب الهدامة - عن ظهر قلب دون رصيد من معرفة الحق وتقليد من لا خير فيه ولا طريقته من الزعماء و الساسة و الفنانين و المغنين " (١)

٤- الثبات على الحق والمبدأ وإن كلفهم ذلك أرواحهم.

(١) - قصة أصحاب الكهف (٣٨-٤١)

سادسا: ثبات صاحب ياسين

يقول سبحانه و تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) [يس: ١٣-٢٧]

هذه القرية من القرى قيل هي قرية إنطاكية بلاد يقال لها العواصم بأرض الروم، أرسل عيسى عليه السلام رسولين فكذبوهما فأرسل إليهم ثالث قيل هو "شمعون الصفي رأس الحواريين" تعزيزا لموافقهم يدعون لموقفهم يدعون أهل تلك القرية إلى الإيمان بالله تعالى وترك عبادة الأصنام، ولكن أهل القرية صدوا عن سبيل الله وتطيرا من هؤلاء المرسلين، فسمع رجل بسيط يقال له "حبيب النجار"، فجاء من أقصى المدينة يسعى قد آمن بدعوة عيسى عليه السلام وحمل الدعوة على كتفيه

فهذا رجل سمع الدعوة واستجاب لها بعدما رأى فيها من دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه في مقالته لقومه : و حينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره فلم يطق عليه سكوتا و لم يقنع في دره بعقيدته و هو يرى الضلال من حوله و الجحود و الفجور و لكنه سعى بالحق الذي استقر في ضميره و تحرك في شعوره ، سعى به إلى قومه إلى الحق و في كفهم عن البغي و في مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين ، و ظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان و لم يكن في عزوة من قومه أو منعة من عشيرته ، ولكنها العقيدة الحية في ضميره تدفعه و تجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها وهو لا يطلب أجرا و لا يتبغي مغنما ، إنه لصادق و إلا فما يحمله على هذا العناء إن لم يلبي تكليفا من الله ما الذي يدفعه إلى حمل هم الدعوة و مجابهة الناس بغير ما الفوه من العقيدة و التعرض لأذاهم و شرهم و استهزائهم تنكيلهم وهو لا يجني من ذلك كسبا ولا يطلب منهم أجرا ، إنه حرص الداعي على الناس ورغبته غب إنقاذهم من العذاب ، و حبه للناس ما يحبه لنفسه ... ياله من حرص ما رأينا مثله إلا في الدعوة الله ، وتأمل حال الداعي بعد ما قتلوه ينقل لنا القرآن مشاعره ليس فيها حب للانتقام ولا الحقد ولا الضغينة و نرى القرآن يبين لنا حال هذا الرجل المؤمن الداعي إلى ربه و قد اطلع على ما آتاه الله في الجنة من المغفرة و الكرامة ، يذكر قومه

طيب القلب راض النفس و يتمنى لو يراه قومه و يرون ما آتاه ربه من الرضى و الكرامة
ليعرفوا الحق معرفة اليقين .

قال ابن عباس رضي الله عنه نصح قومه في حياته ونصحهم بعد مماته .

وقال أبو السعود رحمه الله : إنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب الثواب
والأجر والتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان جريا على سنن الأولياء في الترحم على
الأعداء .

هذا العناء إن لم يكن يلبي تكليفا من الله؟

الفصل الثالث

ثبات الصحابة رضي الله عنهم

أصحاب النبي ﷺ هم الذين باعوا أنفسهم و أموالهم و أهليهم لله عز وجل ، هم الذين
تركوا الأوطان من أجل رضى الرحمن ، هم الذين قالوا الأهل و الآباء و الأبناء من أجل
رضى الله - عزو جل - هم الذين ثبتوا على الإيمان رغم طغيان أهل الكفر و العصيان ،
هم الذين صبروا و صابروا و رابطوا ، أثنى عليهم ﷺ : بقوله {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**
لَنُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [التوبة: ١٠٠]

قال ابن كثير رحمه الله فقد أخبر الله العظيم أنه رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين و
لأنصار و الذين اتبعوهم بإحسان ، فيا ويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض بعضهم أو سب
بعضهم .

وقال رحمه الله : { (١٧) لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي
قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ
عَزِيزًا حَكِيمًا } [الفتح: ١٨، ١٩]

وفي صحيح مسلم عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يدخل النار أحد ممن بايع
تحت الشجرة "

وقال رحمه الله : { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا
سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ
فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ
يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً
وَأَجْرًا عَظِيمًا } [الفتح: ٢٩]

ومن فضائلهم أيضا ما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنهم،
عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " يأتي زمان يغزو فئام من الناس، فيقال: فيكم من صحب النبي صلى الله عليه وسلم؟
فيقال: نعم، فيفتح عليه، ثم يأتي زمان، فيقال: فيكم من صحب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؟
فيقال: نعم، فيفتح، ثم يأتي زمان فيقال: فيكم من صحب صاحب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؟
فيقال: نعم، فيفتح " (١)

(١) - أخرجه البخاري (١٣١٦/٣)، رقم (٣٣٩٩)، ومسلم (١٩٦٢/٤)، رقم (٢٥٣٢)

ومن فضائلهم أيضا ما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي سعيد، قال: كان بين خالد بن الوليد، وبين عبد الرحمن بن عوف شيء، فسيبه خالد، فقال رسول الله ﷺ: "لا تسبوا أحدا من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا، ما أدرك مد أحدهم، ولا نصيفه" (١) وأخرج البخاري عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم قال عمران فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة ثم إن بعدهم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا ينفون ويظهر فيهم السمن" (٢) والمراد بالسمن: لتوسع في المأكول والمشرب

عن عبد الله بن مسعود، قال: "إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه" (٣)

عن عبد الله بن عمر، قال: "من كان مستنا فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا خير هذه الأمة، أبرها قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ونقل دينه" (٤)

يقول ابن الجوزي رحمه الله: "واعلم أن فضائل الصحابة على جميع صحابة الأنبياء ظاهرة وكان لسبقهم سببان:

أحدهما: خلوص البواطن من الشك بقوة اليقين. وإلى هذا أشار رسول الله ﷺ: "ما سبقكم أبو بكر بكثير صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره".

(١) - أخرجه البخاري (١٠/٥). ومسلم (١٨٨/٧)

(٢) - أخرجه: البخاري ٢٢٤/٣ (٢٦٥١)، ومسلم ١٨٥/٧ (٢٥٣٥) (٢١٤).

(٣) - أخرجه الطيالسي (٣٣/١)، رقم ٢٤٦، وأبو نعيم في الحلية (٣٧٥/١).

(٤) - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣٠٦/١)

والثاني: بذل النفوس للمجاهدة والاجتهاد.

وقد علم ما جرى لموسى مع أصحابه وعلم صبر صحابتنا.

ولما استشار رسول الله ﷺ الناس يوم بدر قال المقداد: والله لو ضربت بطونها حتى تبلغ برك الغماد لتابعنك، ولا نقول كما قال قوم موسى {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا} [المائدة: ٢٤].

وكان أبو طلحة يوم أحد يقول: نحري دون نحرك. وقتل يومئذ زوج امرأة وأبوها وابنها وأخوها فقالت: يا رسول الله لا أبالي إذ سلمت من عطب! ^(١)

فهيا - أخي المسلم - إلى ساحة ثبات الصحابة رضي الله عنهم أمام أهل الكفر والعصيان وكيف أنهم هانت عليهم أنفسهم في سبيل الله واستعذبوا العذاب في الثبات على الإيمان فضربوا بذلك أروع الأمثلة على مر التاريخ فهيا أخي المسلم لتشبه بهم .

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

ثبات أبي بكر الصديق - ﷺ

عن عائشة. قالت: لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلا ألح أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهور فقال: "يا أبا بكر إنا قليل" فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين فضربوا في نواحي المسجد ضرباً شديداً ووطئ أبو بكر وضرب ضرباً شديداً ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين

^(١) - التبصرة لابن الجوزي (ص: ٣٨٦)

مخصوفتين ويحرفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه وجاء بنو تيم يتعادون فأجلت المشركين عن أبي بكر وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون في موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسوا منه بألستهم وعذلوه، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت والله ما لي علم بصاحبك، فقال اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله؟ فقالت ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك قالت نعم. فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت والله إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم. قال فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت هذه أمك تسمع، قال فلا شيء عليك منها، قالت سالم صالح. قال أين هو؟ قالت في دار ابن الأرقم، قال فإن لله علي أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو أتى رسول الله ﷺ.

فأمهلنا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس، خرجنا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاها على رسول الله ﷺ، قال فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله وأكب عليه المسلمون، وورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة. فقال أبو بكر بأبي وأمي يا رسول الله ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أُمِّي برة بولدها، وأنت مبارك فادعها إلى الله وادع الله لها عسى

الله أن يستنقذها بك من النار. قال فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت، وأقاموا مع رسول الله ﷺ في الدار شهرا وهم تسعة وثلاثون رجلا" (١)

وهكا كان أبو بكر رضي الله عنه فهو أول من بكر بالإسلام، وهو ثاني اثنين إذ هما في الغار كان لا يهاب الموت ولا يخشى الردى

ماض واعرف دربي وما هدفي والموت يرقص لي في كل منعطف

وما أبالي به حتى أحاذره فالموت أضحي عندي بارد الطرف

*** ومن ثباته رضي الله عنه عند موت النبي ﷺ**

وكان أبو بكر رضي الله عنه وهو الذي هبّاه الله لخلافة النبوة والوقوف موقف العزيمة والحكمة، رجل الساعة المطلوب والجبل الراسي الذي لا يحول ولا يزول، فأقبل من منزله حين بلغه الخبر، حتّى نزل على باب المسجد، وعمر يكلم الناس، فلم يلتفت إلى شيء، حتّى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة وهو مسجّى، فكشف عن وجهه، ثمّ أقبل عليه فقبّله، ثمّ قال: بأبي أنت وأمي، أمّا المودة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثمّ لن تصيبك بعدها مودة أبدا، وردّ البرد على وجهه ﷺ.

ثمّ خرج وعمر يكلم الناس، فقال: على رسلك يا عمر! وأنصت، فأبى إلا أن يتكلّم، فلما رآه أبو بكر لا ينصت، أقبل على الناس، فلمّا سمعوا كلامه أقبلوا عليه، وتركوا عمر، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال:

أيّها الناس! إنّه من كان يعبد محمدا فإنّ محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإنّ الله حيّ لا يموت، ثمّ تلا هذه الآية: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ



(١) - البداية والنهاية ط الفكر (٣/ ٣٠-٣١)


قَتَلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ [آل عمران: ١٤٤] .

يقول من شهد هذا الموقف: والله كأنَّ الناس لم يعلموا أنَّ هذه الآية نزلت حتَّى تلاها أبو بكر يومئذ، وأخذها الناس عن أبي بكر، فإنَّما هي في أفواههم، ويقول عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت حتَّى وقعت إلى الأرض، ما تحملني رجلاي، وعرفت أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات " (١) .

وهكذا سلم المسلمون الأمر لله من قبل ومن بعد وما ذلك إلا لثبات الصيق رضي الله عنه على إيمانه "

الصورة الثانية لثبات أبي بكر :

أخرج الإسماعيلي عن عمر رضي الله عنه قال : لما قبض رسول الله  ارتد من ارتد من العرب وقالوا : نصلي و لا نزكي فأتيت أبا بكر فقلت : يا خليفة رسول الله تألف الناس و ارفق بهم فإنهم بمنزلة الوحش فقال : رجوت نصرتك و جئتني بخذلانك جبارا في الجاهلية خوارا في الإسلام بماذا عسيت أن أتألفهم ؟ بشعر مفتعل أو بسحر مفترى ؟ هيهات هيهات مضى النبي  و انقطع الوحي و الله لأجاهدنيهم ما استمسك السيف في يدي و إن منعوني عقالا قال عمر : فوجدته في ذلك أمضى مني و أحزم و آدب الناس على أمور هانت على كثير من مؤونتهم حين وليتهم " (٢) .

قال الذهبي : لما اشتهرت وفاة النبي  بالنواحي ارتدت طوائف كثيرة من العرب عن الإسلام و منعوا الزكاة فنهض أبو بكر الصديق لقتالهم فأشار عليه عمر و غيره أن يفتروا عن

(١) - السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي (ص : ٥٤٠)

(٢) - تاريخ الخلفاء (ص : ٦٧)

قتالهم فقال : و الله لو منعوني عقالا أو عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها فقال عمر : كيف تقاتل الناس و قد قال رسول الله ﷺ [أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله فمن قالها عصم مني ماله و دمه إلا بحقها و حسابه على الله ؟] فقال أبو بكر : و الله لأقاتلن من فرق بين الصلاة و الزكاة فإن الزكاة حق المال و قد قال [إلا بحقها] قال عمر : فو الله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق أخرجه الشيخان و غيرهما. ^(١)

حاله ﷺ :

لله درك و الردى متكالب و المشرفية تسحق الأبطال

ووقفت تخطب و الرؤوس تطايرت وأسقيت سيف العز حتى سال

* الصورة الثالثة : لثبات أبي بكر ﷺ :

ابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : و الذي لا إله إلا هو لولا أن أبا بكر استخلف ما عبد الله ثم قال الثانية ثم قال الثالثة فقبل له : مه يا أبا هريرة فقال : إن رسول الله ﷺ وجه أسامة بن زيد في سبعمائة إلى الشام فلما نزل بذي خشب قبض النبي ﷺ و ارتدت العرب حول المدينة و اجتمع إليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم فقالوا : رد هؤلاء توجه هؤلاء إلى الروم و قد ارتدت العرب حول المدينة ؟ فقال : و الذي لا إله إلا هو لو جرت الكلاب بأرجل أزواج النبي ﷺ ما رددت جيشا وجهه رسول الله ﷺ و لا حللت لواء عقده فوجه أسامة فجعل لا يمر بقبيل يريدون الارتداء

^(١) - تاريخ الخلفاء (ص : ٦٧)

إلا قالوا : لو لا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم و لكن ندعهم حتى يلقوا
الروم فلقوهم فهزموهم و قتلوهم و رجعوا سالمين فثبتوا على الإسلام^(١)
فأين الأمة الإسلامية من أبي بكر ومن ثباته على إيمانه في وه الطغيان؟ ما أصاب
المسلمين من تمزق وهوان إلا بسبب ضعف إيمانهم ورهبتهم من أعدائهم فالجهاد
الجهاد أمة الإسلام هو سبيل العزة والتمكين.

السيف أصد أنباء من الكتب فمن يجدد هذا القول للعرب
ومن ينبئهم أن البطولة في إجادة الطعن لا في جودة الخطب
وأن آباءهم سادوا الورى قمما بالجد والكسب لا باللهو واللعب
وأن شمس هداهم منذ أن طلعت على الخلائق والأكوان لم تغب

ثبات أسماء بنت أبي بكر

وابنها عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم

عن مخرمة بن سليمان الوالبي، قال: دخل ابن الزبير على أمه حين رأى من الناس ما رأى
من خذلانهم، فقال: يا أمه، خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، فلم يبق معي إلا اليسير
ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما
رأيك؟ فقالت: أنت والله يا بني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو

^(١) - تاريخ الخلفاء (ص: ٦٧)

فامض له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت! أهلكت نفسك، وأهلكت من قتل معك، وإن قلت: كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين، وكم خلودك في الدنيا! القتل أحسن فدنا ابن الزبير فقبل رأسها وقال: هذا والله رأيي، والذي قمت به داعياً إلى يومي هذا ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمه، ولكنني أحببت أن أعلم رأيك، فزدني، بصيرة مع بصيرتي.

فانظري يا أمه فإنني مقتول من يومي هذا، فلا يشتد حزنك، وسلمى الأمر لله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عملاً بفاحشة، ولم يجر في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته، ولم يكن شيء أثر عندي من رضا ربي اللهم إني لا أقول هذا تزكية مني لنفسي، أنت أعلم بي، ولكن أقوله تعزية لأمي لتسلو عني فقالت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً إن تقدمتني، وإن تقدمتك ففي نفسي، أخرج حتى أنظر إلى ما يصير أمرك قال: جزاك الله يا أمه خيراً، فلا تدعي الدعاء لي قبل وبعد فقالت: لا أدعه أبداً، فمن قتل على باطل فقد قتل على حق ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظماً في هواجر المدينة ومكة، وبره بأبيه وبي اللهم قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت، فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين.^(١)

فلما كان الغداة - التي قُتل فيها ابن لزيبر - دخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنها -، وهي يومئذ ابنة مائة سنة لم يسقط لها سن ولم يفقد لها بصر - فقالت

(١) - تاريخ الطبري (٦/ ١٨٨)

لابنها: - يا عبد الله ما فعلت في حربك؟ قال: بلغوا مكان كذا وكذا. وضحك ابن الزبير رضي الله عنهما فقال: إن في الموت لراحة. قالت: يا بني لعلك تتمناه لي؟ ما أحب أن أموت حتى آتي على أحد طرفيك، إما أن تملك فتقرّ بذلك عيني، وإما أن تقتل فأحتسبك. قال: ثم ودّعها، قالت له: يا بني إياك أن تُعطي خصلة من دينك مخافة القتل. وخرج عنها وأنشأ يقول:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدمنا تقطر الدما

وعن عروة قال: أتيت عبد الله بن الزبير حين دنا الحجاج منه فقلت: قد لحق فلان بالحجاج ولحق فلان بالحجاج فقال:

فَرَّتْ سَلامانُ وفَرَّتِ النَّمِرُ وقد نُلِقِيَ معهم ولا نفر

فقال له أخوه عروة: قد أخذت دارُ فلان ودارُ فلان، فقال:

اصْبِرْ عصامُ إِنَّهُ شَرُّ باقٍ قد سنَّ أصحابك ضرب الأعناق

وقامت الحربُ بنا على ساق

قال فعرفت أنه لا يسلم نفسه قال: فغاطني، فقلتُ والله لئن يأخذوك ليقطعنك إربًا. فقال:

ولست أبالي حين أُقتل مسلمًا على أي شقٍّ مان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلوي ممزع

قال الواقدي: عن أشياخ له قالوا: حصر ابن الزبير ليلة هلال ذي القعدة سنة ثنتين وسبعين وستة أشهر وسبع عشرة ليلة ونصب الحجاج المنجنيق يرمي به أحث الرمي و ألح عليهم

بالقتال من كل وجه و حبس عنهم الميرة و حصرهم أشد الحصار فقامت أسماء يوما فصلت و دعت فقالت " اللهم لا تخيب عبد الله بن الزبير ن اللهم ارحم ذلك السجود و النحيب و الظمأ في تلك الهواجر، و قتل يوم الثلاثاء لسبع عشر خلت من جمادى الأولى سنة ثلاث و سبعين و هو ابن اثنتين و سبعين سنة.

ثبات عبد الله بن حذافة السهمي

روى أهل السير؛ [كالذهبي] [وابن حجر] وغيرهم أن [عمر] رضي الله عنه وجه في السنة التاسعة عشرة للهجرة جيشاً لحرب الروم، وفتح بلادهم للإسلام، وقد علم قيصر الروم من أخبار جند المسلمين، وما يتحلون به من صدق الإيمان، ورسوخ عقيدة، واسترخاض للنفوس في سبيل الله، وصبر وبذل للمُهْج والأرواح في سبيل الله، ما علم؟ علم ما أذهله وما أدهشه وما أشده، فأمر رجاله أن إذا ظفروا بأسير من المسلمين أن يبقوا عليه حياً ويأتوه به، وشاء الله - جل وعلا - أن يقع في الأسر عدد من المسلمين من بينهم صحابي جليل قد أدرك معنى العبودية لله - عز وجل - فتخلص من رق المخلوقين، فلا تراه إلا وهو يصوم النهار، ويتلو القرآن، يقوم في جنح الليل، ويستغفر بالأسحار، فقليل ما يهجع، راقبوه، فرأوا من تقاه وصلاحه وصلابته ورجولته وعقله ورزاقته ما أدهشهم، ورأوا إن كسبوه لدينهم أنهم حققوا نصراً عظيماً، وكسباً عظيماً، ذكروه لقيصرهم فقال: اتنوني به، فجاءوا به فكان الخبر أعظم من الخبر، وجاوزت المعاينة الخبر، وما راء كمن سمع كما قيل، نظر إليه قيصرهم فرأى فيه عزة واستعلاء المؤمن، ونجاة الأبطال، فبادره قائلاً: إني أعرض عليك أمراً، قال: ما هو؟ قال: أن تتنصر، فإن فعلت خلّيت سبيلك وأكرمت مثواك، فقال الأسير في أنفة وحزم: هيهات هيهات، إن الموت لأحب إليّ ألف مرة مما تدعوني إليه، هيهات، أنى لقلوب خالطتها بشاشة الإيمان أن تعود إلى ظلمات الكفر

والضلال مهما كانت الإغراءات، أنى لقلوب عرفت النور بحق أن تتدثر بالظلام مرة أخرى مهما كانت المغريات، يفشل العرض الأول من هذا القيصر ويتحطم على صخرة الإيمان؛ لأن هذا الرجل امتلاً قلبه بعبودية الله، فلم يبقَ في قلبه متسعٌ لغير تلك العبودية، بدأ بالإغراءات فقال قيصرهم: لو تنصرت شاطرتك ملكي، وقاسمتك سلطاني - يريدون أن يبيع دينه بعرض من الدنيا، يريدون أن يُصرف عن عبودية الله إلى رق المركز الذي طالما سال له لعاب كثير من الناس، فضيعوا حقوق الله في سبيل نيله، وباعوا دينهم بعرض من الدنيا -

هربوا من الرقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ فَبَلُّوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

فقال ﷺ مبتسماً في قيده: اخسأ عدو الله، والذي لا إله إلا هو لو أعطيتني جميع ما تملك وما تملكه العرب والعجم على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين ما رضيت، الله أكبر، يتحطم الإغراء بالمركز على صخور الإيمان الشَّم في نفس ذلك الصحابي، لماذا؟ لأنه طالب جنة، ولا يمكن أن يغرى بما هو دون الجنة، وليس بأيديهم ما هو أعلى من الجنة ليغروه به، فأنى لهم أن يصلوا إليه، إنها سلعة الله، غالية جد غالية، مهرها بذل النفس والنفيس لمالكها الذي اشتراها من المؤمنين، وأيم الله، ما هزلت حتى يجتاتها المفلسون المعرضون الجبناء، وأيم الله ما كسدت حتى يبتاعها نسيئة وتأجيلا المعسرون المفلسون، لقد أقيمت للعرض في السوق لمن يريد، وقيل: هل من مزيد، فلم يرَض لها بثمان دون جبل الوريد، عندها قال قيصرهم: ردوه إلى الأسر، فردوه، وطلب من حاشيته وبطانته الاجتماع فوراً لتداول الرأي في طريق يكسب به هذا الفتى ليكون من جند النصارى - وحقاً إنه كسب - وبعد المداولة استقر الرأي على أن الشهوة طريق مجرب ناجح صُرِفَ به الكثير عن دينه ومبادئه وثوابته، فلکم رأوا ولکم رأينا ولکم نر من أناس

يعبدون الشهوة، فينفقون أموالهم في الشهوة المحرّمة؛ لتكون عليهم حسرة وبئس الإنفاق، يسافرون وراء الشهوة المحرمة وبئس السفر والركب، يبيعون دينهم في سبيل الشهوة المحرمة وخسر البيع، والنار حفت بالشهوات وهم يتهافتون إليها وساء التهافت، عبّاد شهوة وبئس العبيد. قال قيصرهم: اتّوني بأجمل فتاة في بلادتي، فجيء بملكة جمال البلاد كما يقولون، وأغراها بالأموال العظيمة إن استطاعت أن توقعه في الفاحشة؛ لأن الفاحشة طريق إلى ترك دينه، ولك أن تتصور أخي الحبيب، لك أن تتصور ما حال هذا الرجل، شاب في كامل فتوته ورجولته وشبابه وقوته وفوق ذلك غائب عن أهله منذ شهور، وهذا عامل يجعلهم يتفاءلون، أدخلوها عليه، فتجردت من ملابسها بعد تجردها من الحياء المترتب على التجرد من الإيمان، ولا ذنب بعد كفر، قامت تعرض نفسها أمامه، ثم ترتمي في أحضانه، فيهرب منها قائلاً: معاذ الله، معاذ الله، فتطارده ويتجنبها، ويغمض عينيه؛ خشية أن يُفتن بها، ويقرأ القرآن ويستعيز بالرحمن ولسان حاله ومقاله: رب القتل أحب إليّ مما تدعوني إليه، وإلا تصرف عني كيدها أصبّ إليها وأكن من الجاهلين، تتابعه من جهة إلى جهة، وهو يستعيز بالله الذي ما امتلاً قلبه إلا بعبوديته حتى يئست منه، نَقَلَت الأخبار على الباب من شياطين الإنس ينتظرون خبر فتنة ذلك الصحابي ووقوعه في الفاحشة لينقلوه إلى الآفاق شماتة في الإسلام وأهله، وإعلاناً لانتصارهم في صرفه عن دينه، ولعل غيره يتبعه في ذلك (حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا) وإذا بها تصيح أخرجوني أخرجوني، فأخرجوها قد تغير لونها، فشلت مهمتها، كرتها خاسرة عاهرة فاجرة، سألتها مَنْ عند الباب من نقلة الأخبار: ما الذي حدث؟ هاتِ البشري، يريدون أن يطيروا بالخبر، قالت: والله ما يدري أنثى أنا أم ذكر، والله ما أدري أَدخلتموني على حجر أم على بشر. الله أكبر الإغراء بالشهوة يخجل أمام عبودية الله التي ما تركت متسعاً لغيرها في قلبه. كيف يرضى طالب الحور العين بعاهرة فاجرة، ولذة

قد يعقبها الهاوية؟ كيف يرضى وقد وعد بمن لو اطلعت إحداهن إلى أهل الأرض لملاّت ما بين السماء والأرض ريحاً ولأضاءت ما بينهما؟ كيف ونصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها؟ كيف وقد وعد بمن ينظر إلى وجهه في خدها أصفى من المرأة؟ كيف وقد وعد بمن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب؟ كيف وقد وعد بمن يكون عليها سبعون ثوباً ينفذ البصر حتى يرى مخّ ساقها من وراء اللحم والدم والعصب والعظم؟ كيف وقد وعد بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

خاب من باع باقياً بفانٍ، خاب من باع الجنة بما فيها بشهوة ساعة. هنا يقول قيصرهم: إذا أقتلك، انتقل الأمر إلى التهديد وأنى لمؤمن امتلاً قلبه بعبودية الله أن يخشى تهديداً دون نار جهنم إنه هارب من النار وما هناك تهديد بما هو أعظم من النار؛ فكل تهديد دونها ولا شك. قال -رضي الله عنه-: أنت وما تريد، افعل ما بدا لك، فأمر بصلبه، ثم أمر برميهِ بالسهم قرب يديه ورجليه وهو يعرض عليه أثناء ذلك أن يرتد عن دينه فيأبى، فيطلب منهم قيصرهم أن ينزلوه عن خشبة الصلب لينوع التهديد عليه؛ علّه أن يلين، فيدعو بقدرٍ عظيم ويصب فيها الزيت، ويوقد تحتها النار حتى أصبح الزيت يغلي، ثم يأتي بأسيرين من أسرى المسلمين فيلقيهما في القدر أمام عينيه، فإذا بلحمهما يتفتت وعظامهما تبدو عارية، منظر فظيع بشع وحشي، ظنوا أنهم به وصلوا إلى قلب هذا الصحابي وإلى بغيتهم منه، التفت القيصر إلى الصحابي وعرض عليه النصرانية فكان أشد إباء من ذي قبل، فلما يئس منه أمر به أن يلقي في القدر مع صاحبيه، فلما ذهب به دمعت عيناه، فظنوا أنه قد جزع وسيرتد عن دينه، فعرضوا عليه النصرانية مرة أخرى فأبى، قال: ويحك فما أبكاك؟ قال: أبكاني أن قلت في نفسي إنما هي نفس تلقى الآن في هذا القدر فتذهب، وقد كنت أشتهي أن يكون لي بعدد ما في جسدي من شعر أنفُس تلقى كلها في هذا القدر في سبيل الله، لا إله إلا الله، والله أكبر، ويا لها من قلوب امتلاّت بخشية الله وعبودية الله! لم يترك

فيها فراغاً لو عد أو وعيد دون الجنة أو الجحيم، عندها ردوه إلى الأسر ووضعوا معه خمرًا ولحم خنزير، ومنعوا عنه الطعام والشراب، وبقي ثلاثة أيام يراقب علّه أن يأكل لحم الخنزير، أو يشرب من الخمر فلم يفعل، وانشئت عنقه - رضي الله عنه وأرضاه - مالت عنقه من شدة الجوع والعطش وأشرف على الهلاك، فأخرجوه وقالوا له: ما منعك أن تأكل أو تشرب، فقال: أما إن الضرورة قد أحلت لي ذلك، ولكن والذي لا إله إلا هو لقد كرهت أن يشمت أمثالكم بالإسلام وأهله

فقال له القيصر معجبًا بثباته ورشده وقوة عقله ولبّه: هل لك أن تقبل رأسي فأخلي عنك، وكانوا لا يعيشون لأنفسهم، قال: وعن جميع أسرى المسلمين، قال: وعن جميعهم، فقال يسائل نفسه: عدو من أعداء الله أقبل رأسه ليخلي عن أسرى المسلمين لئلا يقتلوا، لا ضير في ذلك، فقبله فأطلق له الأسرى وأجازه بثلاثين ألف دينار وثلاثين وصيفًا وثلاثين وصيفة كما روى [ابن عائد] في السير [للذهبي]، وقدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأسرى المسلمين ثابتًا كالطود الشامخ، يطاء بأخمصه الثرى، وهامه توازي الثرى، وأخبر عمر الخبر، فسُرَّ أعظم سرور، ثم قام فقبل رأسه وقال: حق على كل مسلم أن يقبل رأسك^(١)

ثبات بلال بن رباح رضي الله عنه

^(١) - محاضرات علي القرني (١٦ / ٦)

وروى الإمام أحمد وابن ماجه عن ابن مسعود قال: (كان أول من أظهر الإسلام سبعة رسول الله ﷺ وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأبو بكر منعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم دروع الحديد، وصهروهم في الشمس فما منهم من أحد إلا وقد أتاهاهم على ما أرادوا، إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه في الله تعالى، وهان على قومه فأخذوه، فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: أحد، أحد" (١)

وذكر أبو نعيم في الحلية عن ابن إسحاق: كان أمية يخرجهم إذا حميت الظهيرة فيطره على ظهره في بطحاء مكة؛ ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى. فيقول: - وهو في ذلك البلاء - أحد، أحد. قال عمار بن ياسر - وهو يذكر بلالاً وأصحابه وما كانوا فيه من البلاء، وإعتاق أبي بكر إياه، وكان اسم أبي بكر عتيقاً رضي الله عنه -:

جزى الله خيراً ن بلالٍ وصَحْبِهِ عتيقاً وأخزى فاكهاً وأبا جهلٍ
عشية همّاً في بلالٍ بسوءَةٍ ولم يحذرا ما يحذر المرء ذو العقلِ
بتوحيده ربَّ الأنام وقوله شهدتُ بأنَّ الله ربي على مهلٍ
فإن يقتلوني يقتلونني فلم أكن لأشرك بالرحمن من خيفة القتلِ
فيا ربَّ إبراهيم والعبدَ يونسَ وموسى وعيسى نجني ثم لا تُبَلِّ
لمن ظلَّ يهوي الغيَّ من آل غالبٍ على غير برِّ كان منه ولا عدلٍ (٢)

(١) - ابن هشام، السيرة (١/)، عن ابن إسحاق بإسناد حسن، ورواه البزار ورجاله ثقات، مجمع الزوائد للهيتمي (٦/ ٦٢)، البيهقي،

الدلائل (٢/ ٤٦١ - ٤٦٢)، والسنن الكبرى (٩/ ١٣ - ١٤)، من طريق ابن إسحاق.

(٢) - حلية الأولياء (ج ١ ص ١٤٨)

عن قيس قال: اشترى أبو بكر بلالاً وهو مدفون في الحجرة بخمس أواقٍ من ذهب، فقالوا: لو أبيت إلا أوقية لبعناكه، قال: لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته" (١)

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: "كان عمر يقول: أبو بكر سيّدنا وأعتق سيّدنا، يعني بلالاً" (٢)

ثبات عمار بن ياسر وأهل بيته رضي الله عنهم عند الشدائد

عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بعمار وأهله وهم يعذبون فقال "أبشروا آل عمار أو آل ياسر، فإن موعدكم الجنة" (٣)

وفي رواية "وطعن أبو جهل سمية في قُبُلها فماتت، ومات ياسر في العذاب. وهكذا ثبت آل ياسر على الإيمان باعوا أنفسهم في سبيل "لا إله إلا الله محمد رسول الله"

عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار، قال: أخذ المشركون عماراً فلم يتركوه حتى سب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر آلهتهم بخير، فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "ما وراءك؟" قال: شرياً رسول الله، ما تركت حتى نلت منك، وذكرت آلهتهم بخير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كيف تجد قلبك؟" قال: أجد قلبي مطمئناً بالإيمان، قال: "فإن عادوا فعد" (٤)



ثبات خباب بن الأرت رضي الله عنه

(١) - "سير أعلام النبلاء" ٣ / ٢١٠، وقال الذهبي: إسناده قوي

(٢) - أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب المناقب - باب مناقب بلال بن رباح - رضي الله عنه - رقم الحديث (٣٧٥٤).

(٣) - دلائل النبوة للبيهقي (٢ / ١٦٩)

(٤) - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١ / ١٤٠)

دخل خباب بن الارت على عمر فأجلسه على متكئه، وقال: ما على الأرض أحد أحق بهذا المجلس من هذا إلا رجل واحد، قال له خباب: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال:

بلال، قال: فقال خباب: يا أمير المؤمنين، ما هو بأحق مني، إن بلالا كان له من المشركين من يمنعه الله به ولم يكن لي أحد يمنعي، فلقد رأيتني يوما أخذوني وأوقدوا لي نارا ثم سلقوني فيها، ثم وضع رجل رجله على صدري فما اتقيت الأرض إلا بظهري، قال: ثم كشف عن ظهره فإذا هو قد برص. (١)

عن الشعبي، قال: سأل عمر خبابا عما لقي من المشركين، فقال خباب: "يا أمير المؤمنين انظر إلى ظهري، فقال عمر: ما رأيت كاليوم، قال: "أوقدوا إلي نارا، فما أطفأها إلا ودك ظهري" (٢)

ومما ثبت خبابا وأصحابه رضي الله عنهم ما أخرجه البخاري عن خباب: "أتيت رسول الله ﷺ وهو متوسد برده في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة شديدة، فقلت: يا رسول الله ألا تدعو الله لنا فقعد وهو محمر وجهه فقال إن من كان قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله عز وجل - زاد بيان: والذئب على غنمه ، ولكنكم قوم تستعجلون. (٣)

ثبات أبي ذر رضي الله عنه

(١) - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٣٨ / ٥)

(٢) - حياة الصحابة (٣٥١ / ١)

(٣) - البخاري عن الحميدي في: ٦٣- كتاب مناقب الأنصار، (٢٩) باب ما لقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المشركين بمكة، حديث (٣٨٥٢)، فتح الباري (٧: ١٦٤ - ١٦٥).

أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما- قال : فقال - يعني أبا ذر- فيه فقال يا معشر (معاشر) قريش إني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فقالوا قوموا إلى هذا الصابئ فقاموا فضربت لأموت فأدركني العباس فأكب علي ثم أقبل عليهم فقال ويلكم تقتلون (أتقتلون) رجلا من غفار ومتجركم وممركم على غفار فأقلعوا عني فلما أن أصبحت الغد رجعت فقلت مثل ما قلت بالأمس فقالوا قوموا إلى هذا الصابئ فصنع بي مثل ما صنع بالأمس وأدركني (فأدركني) العباس فأكب علي وقال مثل مقالته بالأمس قال فكان هذا أول إسلام أبي ذر رحمه الله ^(١)

هذا الصحابي الذي لم يمر على إسلامه ساعات حمل هم الدعوة وأصر أن يخرج ليعلم إسلامه على الملأ ليعلم الجميع أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فأصابه ما أصبه من أذى حتى كاد أن يموت ، ولكنه لم يزل يصرخ فيهم : لا إله إلا الله إنه الثبات أمم الطغاة.

حاله :

إن العقيدة في قلوب رجالها من ذرة أقوى وألف مهند

فهل لما أصابه الأذى والضرب انسحب من ميدان الدعوة وفر بنفسه من أي هؤلاء
كلاً بل إنه رجع إليهم في الغد يعلنها على الملأ في ثبات المؤمنين حاله كما أخبر ربنا عز وجل {وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ} [آل عمران: ١٢٠]

والمؤمنون على عناية ربهم يتوكلون لا خوف يرهبهم ولا هم في الحوادث يحزنون

^(١) - أخرجه أحمد (٤/٤٣٤)، والدارمي (٧٤٩)، والبخاري (٩٣/١)

لو مر أحدهم على فرعون يجتزئ الرؤوس لأراك في الإفصاح هارون وفي الإقدام موسى

ثبات عثمان بن مظعون رضي الله عنه

لما رأى عثمان بن مظعون رضي الله عنه ما فيه أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة، قال: "والله إن غدوي ورواحي آمنة بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من الأذى والبلاء ما لا يصيبني، لنقص كبير في نفسي". فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له: "يا أبا عبد شمس وفت ذمتك، قد رددت إليك جوارك" قال: لم يا ابن أخي؟ لعله آذاك أحد من قومي؟ قال: "لا، ولكنني أَرْضَى بجوار الله عز وجل، ولا أريد أن أستجير بغيره" قال: فانطلق إلى المسجد فاردد علي جوارِي علانية كما أجرتك علانية، قال: فانطلقا ثم خرجا حتى أتيا المسجد، فقال لهم الوليد: هذا عثمان قد جاء يرد علي جوارِي، قال لهم: "قد صدق، قد وجدته وفيا كريم الجوار، ولكنني قد أحببت أن لا أستجير بغير الله، فقد رددت عليه جواره" ثم انصرف عثمان، وليد بن ربيعة بن مالك بن كلاب القيسي في المجلس من قريش ينشدهم، فجلس معهم عثمان، فقال لبيد وهو ينشدهم:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فقال: عثمان: صدقت، فقال:

وكل نعيم لا محالة زائل

فقال: عثمان: "كذبت نعيم أهل الجنة لا يزول"

قال لبید بن ربیعۃ: یا معشر قریش واللہ ما کان یؤذی جلیسکم، فمتی حدث فیکم هذا؟ فقال رجل من القوم: إن هذا سفیه فی سفہاء معہ قد فارقوا دیننا، فلا تجدن فی نفسک من قوله ، فرد علیہ عثمان حتی سرى - أي عظم - أمرهما، فقام إلیہ ذلك الرجل فلطم عینہ فخضرها، والولید بن المغیرۃ قریب یرى ما بلغ من عثمان، فقال: أما واللہ یا ابن أخي إن كانت عینک عما أصابها لغنیۃ، لقد كنت فی ذمۃ منیعۃ، فقال عثمان: "بلى واللہ إن عینی الصحیحۃ لفقیرة إلی ما أصاب أختها فی اللہ، وإنی لفی جوار من هو أعز منك وأقدر یا أبا عبد شمس" فقال عثمان بن مظعون فیما أصیب من عینہ: "

فإن تک عینی فی رضا الرب نالها یدا ملحد فی الدین لیس بمہتد

فقد عوض الرحمن منها ثوابہ ومن یرضہ الرحمن یا قوم یسعد

فإنی وإن قلت غوی مضلل سفیه علی دین الرسول محمد

أرید بذاک اللہ والحق دیننا علی رغم من یبغی علینا ویعتدی.

وقال علی بن أبی طالب علیہ السلام فیما أصیب من عین عثمان بن مظعون رضي اللہ عنہما:

أمن تذر دهر غیر مأمون أصبحت مکتباً تبکی کمحزون

أمن تذر أقوام ذوي سفہ یغشون بالظلم من یدعو إلی الدین

لا یتھون عن الفحشاء ما سلموا والغدر فیهم سبیل غیر مأمون

ألا ترون أقل اللہ خیرهم أنا غضبنا لعثمان بن مظعون

إذ يلطمون ولا يخشون مقلته طعنا دراكا^(١) وضربا غير مأفون^(٢)

فسوف يجزيهم إن لم يمت عجلا كيلا بكيل جزاء غير مغبون^(٣)

ثبات خبيب بن عدي رضي الله عنه

هريرة رضي الله عنه، قال: "بعث رسول الله ﷺ عشرة رهط سرية عينا، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري جد عاصم بن عمر بن الخطاب"، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهدأة، وهو بين عسفان ومكة، ذكروا الحي من هذيل، يقال لهم بنو لحيان، فنفروا لهم قريبا من مائتي رجل كلهم رام، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلكهم تمرا تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يشرب فاقتصوا آثارهم، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجئوا إلى فدغد وأحاط بهم القوم، فقالوا لهم: انزلوا وأعطونا بأيديكم، ولكم العهد والميثاق، ولا نقتل منكم أحدا، قال عاصم بن ثابت أمير السرية: أما أنا فوالله لا أنزل اليوم في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك، فرموهم بالنبل فقتلوا عاصما في سبعة، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق، منهم خبيب الأنصاري، وابن دثنة، ورجل آخر، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، والله لا أصحبكم إن لي في هؤلاء لأسوة يريد القتلى، فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم فأبى فقتلوه، فانطلقوا بخبيب، وابن دثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر، فابتاع خبيبا بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيرا، فأخبرني عبيد الله بن عياض، أن بنت الحارث أخبرته: أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحد بها، فأعارته، فأخذ ابنا لي وأنا غافلة حين أتاه قالت: فوجدته مجلسه

(١) -اتباع الشيء بعضه بعض

(٢) -غير ناقص

(٣) -حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ١٠٤)

على فخذة والموسى بيده، ففزعت فزعة عرفها خبيب في وجهي، فقال: تخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك، والله ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب، والله لقد وجدته يوما يأكل من قطف عنب في يده، وإنه لموثق في الحديد، وما بمكة من ثمر، وكانت تقول: إنه لرزق من الله رزقه خبيبا، فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه في الحل، قال لهم خبيب: ذروني أركع ركعتين، فتركوه، فركع ركعتين، ثم قال: لولا أن تظنوا أن ما بي جزع لطولتها، اللهم أحصهم عددا،

ما أبالي حين أقتل مسلما على أي شق كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

فقتله ابن الحارث فكان خبيب هو سن الركعتين لكل امرئ مسلم قتل صبيرا" (١)

(١) - صحيح البخاري رقم (٢٨٨٠)

الفصل الرابع

ثبات التابعين ومن سار على نهجهم

ثبات أبي مسلم الخولاني - رحمته الله

أبو مسلم الخولاني رحمته الله واحد من الذين تصدوا للكفرة والجبابرة، فكان آية في ثباته، وآية في إيمانه

عن شرحبيل بن مسلم الخولاني : أن الأسود بن قيس بن ذى الخمار تنبأ باليمن فبعث إلى أبي مسلم الخولاني فأتاه فقال أتشهد أنى رسول الله قال ما أسمع قال أتشهد أن محمدا رسول الله قال نعم فأمر بنار عظيمة ثم ألقى أبا مسلم فيها فلم تضره فقبل للأسود بن قيس إن لم تنف هذا عنك أفسد عليك من اتبعك فأمره بالرحيل فقدم المدينة وقد قبض النبي - صلى الله عليه وسلم - واستخلف أبو بكر فأناخ راحلته بباب المسجد ودخل المسجد فقام يصلى إلى سارية فبصر به عمر بن الخطاب فقام إليه فقال ممن الرجل فقال من أهل اليمن فقال ما فعل الذى حرقه الكذاب بالنار قال ذاك عبد الله بن ثوب قال فنشدتك بالله

أنت هو قال اللهم نعم فاعتنقه عمر وبكى ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه وبين أبي بكر الصديق فقال الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد ﷺ من صنع به كما صنع بإبراهيم خليل الرحمن فلم تضره النار" (١)

ثبات سعيد بن جبير ﷺ

لما أدخل سعيد بن جبير ﷺ على الحجاج بن يوسف الثقفي قال له:

من أنت؟

فقال سعيد: سعيد بن جبير.

فقال الحجاج: بل أنت شقي بن كسير.

قال سعيد ﷺ: بل كانت أمي أعلم باسمي منك.

قال الحجاج: شقيت أنت وشقيت أمك.

قال سعيد ﷺ: الغيب يعلمه غيرك.

قال الحجاج: لأبدلنك بالدنيا نارا تلظى.

(١) -البداية والنهاية ط هجر (٩/ ٣٢٩)

قال سعيد رضي الله عنه: لو أني أعلم أن ذلك بيدك لاتخذتك إلها.

فقال: فما قولك في محمد.

قال سعيد رضي الله عنه: نبي الرحمة والهدى صلى الله عليه وسلم رسول رب العالمين إلى الناس كافة بالموعظة الحسنة.

فقال الحجاج: فما قولك في علي؟ في الجنة هو أو في النار؟

فقال سعيد رضي الله عنه: لو دخلتها فرأيت أهله عرفت من فيها فما سؤالك عن غيب حفظ بالحجاب؟

قال: فما قولك في الخلفاء؟

قال سعيد رضي الله عنه: لست عليهم بوكيل، كل امرئ بما كسب رهين.

قال الحجاج: أستمهم أم أمدحهم؟

قال سعيد رضي الله عنه: لا أقول ما لا أعلم إنما استحفظت أمر نفسي.

قال الحجاج: فأيهم أعجب؟

قال سعيد رضي الله عنه: أَرْضَاهُمْ لخالقي.

قال الحجاج: فأيهم أَرْضَى؟

قال سعيد: علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم.

قال الحجاج: فأَي رجل أنا يوم القيامة؟

قال سعيد رضي الله عنه: أنا أهون على الله من أن يطلعني على الغيب.

قال الحجاج: أبيت أن تصدقني .

قال سعيد رحمه الله: بل لم أرد أن أكذبك.

قال الحجاج: دع عنك هذا كله أخبرني ما لك لم تضحك قط؟

قال رحمه الله: لم أر شيئاً يضحكني، وكيف يضحك مخلوق خلق من طين والطين النار تأكله

قال الحجاج: فما لنا نضحك؟

قال سعيد رحمه الله: لم تستو القلوب كذلك خلقنا الله أطوارا.

قال الحجاج: هل رأيت شيئاً من اللهو؟

قال سعيد رحمه الله: لا أعلمه.

فدعا الحجاج بالعود والناي، فلما ضرب بالعود ونفخ في الناي بكى سعيد.

فقال الحجاج: ما يبكيك؟

قال رحمه الله: يا حجاج ذكرتني أمرا عظيما والله لا شبع ولا رويت ولا اكتسيت ولا زلت
حزينا لما رأيت.

قال الحجاج: وما كنت رأيت هذا اللهو؟

فقال سعيد رحمه الله: بل هو والله الحزن يا حجاج أما هذه النفخة فذكرتني يوما عظيما يوم
ينفخ في الصور، وأما العود فشجرة قطعت في غير حق، وأما الأوتار فإنها أمعاء الشاء
يبعث بها معك يوم القيام.

قال الحجاج: أنا أحب إلى الله منك.

قال سعيد رحمه الله: لا يقدم أحد على ربه حتى يعرف منزلته منه، والله بالغيب أعلم؟

قال الحجاج: كيف أقدم على ربي في مقامي هذا وأنا مع إمام الجماعة وأنت مع إمام
الفرقة والفتنة؟

قال سعيد رحمته الله: ما أنا بخارج عن الجماعة ولا أنا براض عن الفتنة ولكن قضاء الرب نافذ
لا مرد له.

قال الحجاج: كيف ترى ما نجمع لأمر المؤمنين؟

قال سعيد رحمته الله: لم أر.

فدعا الحجاج بالذهب والفضة واللؤلؤ والزبرجد والياقوت فجمعه بين يدي سعيد بن
جبير.

فقال سعيد رحمته الله: هذا أحسن إن قمت بشرطه؟

قال الحجاج: وما شرطه؟

قال سعيد رحمته الله: أن تشتري بما تجمع الأمن من الفرع الأكبر يوم القيام فصالح وإلا ففرعة
واحدة { تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا } [الحج: ٢] ولا
خير في شيء جمع للدنيا إلا ما طب وزكي.

قال الحجاج: فترة جمعنا طيبا؟

قال سعيد رحمته الله: برأيك جمعته وأنت أعلم بطيبه.

قال الحجاج: أتحب أن لك شيئا منه؟

قال سعيد رحمته الله: لا أحب ما لا يحب الله.

قال الحجاج: ويلك.

قال سعيد رضي الله عنه: الويل لمن زحزح عن الجنة وأخل النار .

قال الحجاج: اختر لنفسك يا سعيد قتله تريد أن أقتلك؟

قال سعيد رضي الله عنه: اختر لنفسك يا حجاج فوالله ما تقتلني إلا قتلك الله مثلها في الآخرة

قال الحجاج: أفترى أن عفو عنك؟

قال سعيد رضي الله عنه: إن كان العفو فمن الله، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر.

قال الحجاج: اذهبوا به فاقتلوه، فلما خرج سعيد من الباب ضحك فأخبر الحاج فأمر برده

فقال: ما يضحكك يا سعيد؟

قال رضي الله عنه: عجبت من جرأتك على الله وحلم الله عليك !!

فأمر الحجاج بالنطع فبسط ثم قال اقتلوه.

فقال سعيد رضي الله عنه: حتى أصلي ركعتين، فاستقبل القبلة وهو يقول: {وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي

فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام: ٧٩]

قال الحجاج: اصرفوه عن القبلة، فصرفوه.

قال سعيد رضي الله عنه: {فَإَيْنَمَا تَوَلَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} [البقرة: ١١٥]

قال الحجاج كبوه لوجهه.

قال سعيد رضي الله عنه: {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} [طه: ٥٥]

قال الحجاج: اذبحوه.

فقال سعيد رضي الله عنه: إني أشهدك يا حجاج أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له و أن محمدا عبده ورسوله ، استحفظكهن يا حجاج حتى تلقاني يوم القيامة ثم دعا سعيد فقال اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي فذبح - رحمه الله -

جزاء الحجاج:

قال الدكتور سيد العفاني: بلغنا أن الحجاج عاش بعده خمسة عشر ليلة و كان ينادي بقية حياته: مالي و سعيد بن جبير؟ كلما أردت النوم أخذ برجلي .
وقيل: لم يلبث الحجاج بعده إلا أربعين يوما، وكان إذا نام يراه في المنام يأخذ بمجامع ثوبه ويقول: يا عدو الله فيم قتلتي؟

فيقول الحجاج: مالي ولسعيد بن جبير ... مالي ولسعيد بن جبير؟
وقيل أيضا: إن الحجاج عاش بعده أيام قلائل فسلط الله على الحجاج البرودة حتى كانت النار حوله يضع يده على الكانون فيحترق الجلد ولا يحس بالحرارة و وقعت الأكلة في داخله والدود فبعث إلى الحسن البصر فقال له: ألم قل لك: لا تتعرض للعلماء؟ قتلت سعيدا.

قال الحجاج: أما إني ما طلبتك لتدعو لي ولكن ليرحني الله مما أنا فيه، فهلك وكان ينادي بقية حياته ما لي ولسعيد بن جبير ما لي ولسعيد بن جبير؟
قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لو تخابثت الأمم فجاءت كل أمة بأخبثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم.

وأطلق سليمان بن عبد الملك في غداة واحدة أحدا وثمانين ألف أسير كانوا في سجن الحجاج.

وقيل إنه لبث في سجنه ثمانون ألف منهم ثلاثون ألف امرأة، وعرضت السجون بع الحجاج فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفا.

وقال هشام بن حسان رحمه الله: أحصوا ما قتل الحجاج صبورا، فبلغ مائة ألف وعشرين ألفا.

وقال الإمام أحمد رحمه الله: قُتل سعيد بن جبير وما على الأرض أحد إلا وهو محتاج - أو قال - مفتقر - إلى علمه

ولما مات الحجاج سجد الحسن شكرا لله، وقال: اللهم أمته فأذهب عنا سنته ولما أخبر إبراهيم النخعي بموته بكى من الفرح. ^(١)

ثبات حطيط الزيات رحمه الله

إنه شاب نشأ في طاعة الله ربه ومولاه لا يعرف المراوغة ولا يعرف له النفاق طريقا معتصما بقول النبي صلى الله عليه وسلم " سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله " ^(٢)

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم عندما سئل : أي الجهاد أفضل ؟

قال " كلمة حق عند سلطان جائر " ^(٣)

أرسل إليه الحجاج وهو من عرف في ظلمه و طغيانه فلما جيء به إلى الحجاج فلما دخل عليه قال أنت حطيط قال نعم سل عما بدا لك فإني عاهدت الله عند المقام على ثلاث خصال إن سئلت لأصدقن وإن ابتليت لأصبرن وإن عوفيت لأشكرن قال فما تقول في قال أقول إنك من أعداء الله في الأرض تنتهك المحارم وتقتل بالظنة قال فما تقول في

^(١) - الجزء من جنس العمل (ج ٢) بتصرف يسير .

^(٢) - أخرجه الحاكم (٢١٥/٣ ، رقم ٤٨٨٤) وقال : صحيح الإسناد . ، صحيح الجامع : ٣٦٧٥ ، الصحيحة : ٣٧٤

^(٣) - أخرجه أبو داود (١٢٤/٤ ، رقم ٤٣٤٤) ، وابن ماجه (١٣٢٩/٢ ، رقم ٤٠١١) .

أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قال أقول إنه أعظم جرماً منك وإنما أنت خطيئة من خطاياهم قال فقال الحجاج ضعوا عليه العذاب قال فأنتهى به العذاب إلى أن شقق له القصب ثم جعلوه على لحمه وشدوه بالحبال ثم جعلوا يمدون قصبة قصبة حتى انتحلوا لحمه فما سمعوه يقول شيئاً قال فليل للحجاج إنه في آخر رمق فقال أخرجوه فارموا به في السوق قال جعفر فأتيته أنا وصاحب له فقلنا له حطيط ألك حاجة قال شربة ماء فأتوه بشربة ثم مات وكان ابن ثمان عشرة سنة رحمة الله عليه^(١)

ثبات الإمام الأوزاعي رحمه الله

ها هو الإمام الأوزاعي رحمه الله ذلكم الإمام العابد المحدث الورع الفقيه عندما يدخل عبد الله بن علي ذلكم الحاكم العباسي دمشق في يوم من الأيام فيقتل فيها ثمانية وثلاثين ألف مسلم، ثم يدخل الخيول مسجد بني أمية، ثم يتبجح ويقول: من ينكر علي فيما أفعل؟ قالوا: لا نعلم أحداً غير الإمام الأوزاعي .

فيستدعيه، فيذهب من يذهب ليستدعيه؛ فعلم أنه الامتحان؛ وعلم أنه الابتلاء؛ وعلم أنه إما أن ينجح ونجاح ما بعده رسوب، وإما أن يرسل ورسل ما بعده نجاح.

فماذا كان من هذا الرجل؟ قام واغتسل وتحنط وتكفن ولبس ثيابه من على كفيه ثم أخذ عصاه في يده واتجه إلى من حفظه في وقت الرخاء فقال: يا ذا العزة التي لا تضام! والركن الذي لا يرام! يا من لا يهزم جنده! ولا يغلب أولياؤه! أنت حسبي ومن كنت حسبه فقد كفيته، حسبي الله ونعم الوكيل.

ثم ينطلق وقد اتصل بالله سبحانه وتعالى انطلاقاً الأسد إلى ذاك، وذاك قد صف وزراءه وصف سماطين من الجلود يريد أن يقتله وأن يرهبه بها، قال: فدخلت -ويوم دخلت-

(١) - إحياء علوم الدين ومعه تخريج الحافظ العراقي (٣/ ٣٧٧)

وإذا السيوف مسلطة، وإذا السمات معد، وإذا الأمور غير ما كنت أتوقع، قال: فدخلت،
ووالله! ما تصورت في تلك اللحظة إلا عرش الرحمن بارزاً، والمنادي ينادي: فريق في
الجنة وفريق في السعير.

فوالله! ما رأيته أمامي إلا كالذباب، والله! ما دخلت بلاطه حتى بعث نفسي من الله جل
وعلا.

قال: فانعقد جبين هذا الرجل من الغضب ثم قال: أنت الأوزاعي؟ قال: يقول الناس: أني
الأوزاعي .

قال: ما ترى في هذه الدماء التي سفكنا؟ قال: حدثنا فلان عن فلان عن فلان عن جدك ابن
عباس وعن ابن مسعود وعن أنس وعن أبي هريرة وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: {
لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه
المفارق للجماعة } .^(١)

قال: فتلمظ كما تتلمظ الحية، قال: وقام الناس يتحفزون ويرفعون ثيابهم لئلا يصيبهم
دمي، قال: ورفعت عمامتي ليقع السيف على رقبتني مباشرة، قال: وإذا به يقول وما ترى
في هذه الدور التي اغتصبنا والأموال التي أخذنا، قال: سوف يجردك الله عرياناً كما
خلقتك، ثم يسألك عن الصغير والكبير والنقيير والقطمير؛ فإن كانت حلالاً فحساب وإن
كانت حراماً فعقاب.

قال: فانعقد جبينه مرة أخرى من الغضب، قال: وقام الوزراء يرفعون ثيابهم، قال: وقمت
لأرفع عمامتي ليقع السيف على رقبتني مباشرة، قال: وإذا به تنتفخ أوداجه ثم يقول: اخرج.

^(١) - أخرجه أبو داود (١٢٦/٤، رقم ٤٣٥٣)، والنسائي (١٠١/٧، رقم ٤٠٤٨)، والبيهقي (٢٨٣/٨، رقم ١٧٠٨٩) .

قال: فخرجت، فوالله! ما زادني ربي إلا عزة.

ذهب وما كان منه إلا أن سار في طريقه إلى الله عز وجل حتى لقي الله جل وعلا بحفظه سبحانه وتعالى.

ثم جاء هذا الحاكم ومر على قبره بعد أن توفي، فوقف عليه وقال: والله! ما كنت أخاف أحداً على وجه الأرض كخوفي من هذا المدفون في هذا القبر، والله! إنني كنت إذا رأيته رأيت الأسد بارزاً.

وقفه ثبات:

١- قوة إيمان الإمام الأوزاعي رحمه الله حيث شهد له الجميع بأنه هو الذي سينكر عليه فعله.

٢- أن من تعرف على الله في الرخاء عرفه في الشدة.

٣- أن من حفظ الله حفظه الله.

٤- أن من توكل على الله كفاه الله ما أهمه وفرج كربه.

وكنت إذا الطغيان أظهر بأسه وسل علينا سيفه وخناجره

دعوتك فاستنهضت بالفضل نصرتي فزلزلت بالعزم الأكيد محاجرته

٥- قول الحق وإن كان فيه الهلكة فإن فيه النجاة.

ثبات شيخ الإسلام أبي الحسن رحمه الله

بنان بن محمد بن حمدان بن سعيد أبو الحسن الزاهد رحمه الله، ويعرف بالحمال، وكانت له كرامات كثيرة، وله منزلة كبيرة عند الناس، وكان لا يقبل من السلطان شيئاً، وقد أنكر يوماً على ابن طولون شيئاً من المنكرات وأمره بالمعروف، فأمر به فالقي بين يدي الأسد فكان

الأسد يشمه ويحجم عنه، فأمر برفعه من بين يديه وعظمه الناس جدا، وسأله بعض الناس عن حاله حين كان بين يدي الأسد فقال له: لم يكن علي بأس.

قد كنت أفكر في سؤر السباع واختلاف العلماء فيه هل هو طاهر أم نجس.^(١)

الله أكبر، إنه الثبات على الإيمان الذي جعل صاحبه لا يفكر في ذلك الأسد الضاري وإنما كان همه مسألة فقهية، وهنا يأتي السؤال: لماذا لم يرهب الأسد؟

والجواب: لأن من خاف الله حوف الله منه كل شيء، ومن خاف الله من كل شيء.

ثبات أبي بكر النابلسي رحمته الله

ذلكم العابد الورع الذي تربى في مدرسة القرآن التي من موادها فنال أعلى الدرجات وساهم بنفسه لينال المكرمات، يوم ملك الفاطميون الروافض بلاد مصر عطلوا الصلوات وحاربوا أهل السنة وذبحوا من علماء السنة الكثير، واستدعى المعز الحاكم أبا بكر النابلسي عليه رحمة الله فقال له:

بلغني عنك أنك قلت لو كان معي عشرة أسهم لرميت الروم بتسعة ورميت الفاطميين بسهم.

قال أبا بكر لا... فظن المعز أنه رجع عن قوله، قال المعز كيف؟

قال أبو بكر بل ينبغي رميكم أيها الفاطميون بتسعة ورمي الروم بالعاشر.

^(١) - البداية والنهاية-دار إحياء التراث العربي (١١/ ١٨٠)

فأرغى وأزبد وأمر بضربه في اليوم الأول، ثم أمر بإشهاره في اليوم الثاني، ثم أمر في اليوم الثالث بسلخه حيا.

فجيء يهودي فجعل يسلخه وهو يقرأ القرآن حتى أشفق عليه اليهودي فلما وصل في سلخه إلى قلبه طعنه بالسكين ليلقى ربه فكان يسمى بالشهيد.

وقفة ثبات:

أي شهادة أعظم من تلك الشهادة؟!

مات وهو يدافع عن السن فإذا سأله ربه يوم القيامة - وهو أعلم به - فيم قتلت يا أبا بكر؟

يقول: في الذود عن سنة نبيك محمد ﷺ، إي والله ما نال هؤلاء الإمامة في الدين إلا بالصبر على الأذى "

فأين الثرى من الثريا؟ وأين هؤلاء من علماء السوء الذين يحلون ما حرم الله اتباعا للهوى ؟!

فهذا أحل الربا وقال: إنه لا ربا بن الفرد والدولة، وذاك أفتى بأن النقاب بدعة وعادة جاهلية حال هؤلاء كقول القائل:

يقولون هذا عندنا غير جائز ومن أنتم حتى يكون لكم عند

يأتي أبو بكر يوم القيام في زمرة العلماء العاملين الذين هم ورثة الأنبياء والمرسلين،
ويأتي هؤلاء في زمرة من قال الله فيهم { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ
الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [البقرة: ٤٤] ومع هؤلاء الذين { اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا
} [التوبة: ٣١]

ثبات العز بن عبد السلام سلطان العلماء رحمه الله

اعلم علمني الله وإياك: أن الثبات على الإيمان هو الذي يدف صاحبه لإحقاق الحق وإبطال الباطل دون خوف من أحد سواء أكان ذلك ملكا أو أميرا أو ظالما، بل هو الذي يجعلهم يهابون ويخافون من أهل الإيمان، وهيا لنعيش في أكناف الصالحين مع سلطان العلماء إنه العز بن عبد السلام.

كان الشيخ الجليل عز الدين بن عبد السلام قد تولى منصب قاضي القضاة، وما إن تولى هذا المنصب حتى لاحظ أن أمراء البلاد وقادة الجيش ليسوا من أهل مصر وليسوا أحرارا على الإطلاق، بل هم مجلوبون اشتراهم السلطان من بيت المال وهم صغار، فتعلموا اللغة العربية وعلوم الدين والفروسية والحرب، وعندما شبوا عينهم في مناصبهم فهم أمراء ممالك عبيد، إذن فليس لهم حقوق الأحرار ولهذا فليس لهم أن يتزوجوا بحرائر النساء، وليس لهم أن يبيعوا أو يتصرفوا إلا كما يتصرف العبيد.

بلغ الأمراء ذلك فعظم الخطب فيهم واحتدم الأمر واشتد، والشيخ مصمم لا يصحح لهم بيعا ولا شراء ولا نكاحا وتعطلت مصالحهم بذلك.

وكان منهم نائب السلطان فاستشاط غضبا فاجتمعوا وأرسلوا إليه فقالوا له: ماذا تريد؟ فقال الشيخ: نعقد لكم مجلسا وينادي عليكم للبيع لبيت مال المسلمين ويحصل عتقكم بطريق شرعي.

فرفعوا الأمر إلى السلطان فبعث السلطان إليه فلم يرجع عن قوله، فجرت من السلطان كلمة فيها غلظة، فغضب الشيخ وحمل حوائجه على حمار وأركب عائلته على حمير أخرى ومشى خلفهم خارجا من القاهرة قاصدا الشام، فلم يصل إلى نصف ما يريد حتى لحقه غالب المسلمين ولم تكد امرأة ولا صبي ولا رجل يتخلف ولا سيما العلماء والصلحاء والتجار.

بلغ السلطان الخبر وقيل له: متى راح الشيخ ذهب ملكك، فركب السلطان نفسه ولحقه واسترضاه وطيب خاطره، فرجع الشيخ واتفق على أن ينادى على الأمراء لبيعهم، فأرسل إليه نائب السلطان بالملاطفة فلم يقبل الشيخ ولم تغد الملاطفة معه فانزعج نائب السلطان وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض؟! والله لأضربنه بسيفي هذا، وركب بنفسه -نائب السلطان- في جماعته وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول في يده، فطرق الباب فخرج ولد الشيخ فرأى من نائب السلطنة ما رأى، فعاد إلى أبيه وحكى له ما رأى، فما اهتم الشيخ بذلك ولا تغير وقال: يا ولدي أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله. ثم خرج وكان قضاء الله قد نزل على نائب السلطان، فحين وقع بصر الشيخ على النائب يبست يد النائب وارتجف وسقط السيف من يده وارتعدت مفاصله وبكى وسأل الشيخ أن يدعو له وقال: يا سيدي الشيخ خير أي شيء تعمل؟ قال: أناادي عليكم، قال: ففيم تصرف ثمننا؟ قال: في مصالح المسلمين، قال: فمن يقبضه، قال: أنا. فوافق وتم للشيخ ما أراد ونادى على الأمراء واحدا واحدا وغالى في ثمنهم وقبضه وصرفه في وجوه الخير، وهذا لم يسمع بمثله عن أحد، رحمه الله تعالى -رضي الله عنه - (١).

(١) -موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق (٢/ ٩٣) مائة موقف من حياة العظماء ١٣، ١٤.

فأين علماء المسلمين من هذا الجبذ الذي ثبت على إيمانه ولم يرهب أحدا، بل رهبه
أداؤه فأصبحوا أحبابه

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى رجال الحي غير رجالها

ومن ثباته ﷺ أيضا:

ذكر السبكي في طبقاته أن الشيخ عز الدين طلع إلى السلطان في يوم عيد إلى القلعة (في
القاهرة) فشهد العسكر مصطفىين بين يديه ، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه : يا أيوب ،
ما حجتك عند الله إذا قال لك : ألم أبوى لك ملك مصر ثم تبيح الخمر ؟ فقال : هل
جرى هذا ؟ فقال الشيخ : نعم . الحانة الفلانية تباع فيها الخمر .
فقال : يا شيخنا هذا من أيام أبي .

فقال الشيخ : أنت من الذين يقولون : [إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ] . وقد أمر السلطان بإقفال
الحانة على الفور ، ثم يسأل الشيخ أحد تلاميذه : أما خفته ؟
قال الشيخ : والله يا بني استحضرت هيئة الله تعالى ، فصار السلطان أمامي كالقط ^(١) .
حاله - رحمه الله - :

إذا اعتاد الفتى خوض المنيا فأصر ما يمر به الوحول

هؤلاء هم العلماء وعيب أن يقال لغيرهم علماء إلا إذا ساروا على سيرهم واقتفوا أثرهم ،
فأين سلطان العلماء من علماء عصرنا الذين يرون المنكرات والمخالفات - غناء وتبرج

^(١) - (طبقات الشافعية) للسبكي (٨ / ٢١١) .

وسفور، وحكم بغير ما أنزل الله، وعلى الرغم من ذلك يباركون ويهللون، إن العز عز بإيمانه وثبت على الصراط المستقيم فكان له من اسمه نصيب.

ومن تكن الأسد الضواري جدوده يكن زاده رقد ومطعمه عضبا

ومن ثباته ﷺ :

و من صور ثبات العز بن عبد السلام ﷺ هذا المشهد الرائع : أنه كان يحكم دمشق و توابعها الأمير إسماعيل الذي تواطأ مع الصليبيين على أن يناصروه ضد نجم الدين أيوب ، مقابل ذلك تنازل لهم عن بعض ضواحي البلاد و عن إحدى القلاع المسلمين الحصينة ، و أنكر علماء الأمة على هذه الخيانة ومنهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام الذي وقف ضد الأمير المذكور و قط ذكر اسمه من الدعاء في خطبة الجمعة ، فما كان من الأمير إلا أن عزل الشيخ و اعتقله ، فصبر لشيخ على اعتقاله صبر المؤمنين الصادقين ، فما كان من الأمير إلا أن أرسل إلى الشيخ من يسترضيه و يعده و يمينه و يقول له : بينك و بين أن تعود إلى منصبك و زيادة أن تنكسر و تقبل يده لا غير !!

فقال الشيخ لمن يعرض عليه ذلك: يا مسكين ما أرضى أن يقبل السلطان يدي فضلا عن أن قبل يده ، يا م قوم أنتم في واد وأنا في واد الحمد لله الذي عافني عافني مما ابتلاكم به، فقال له رسول الأمير إن الأمير قد أمرني إن لم توافق أن أشدد عليه في معتقلك . فقال الشيخ: افعلوا ما بدالكم.

وبقي الشيخ في معتقله إلى أن انتصر نجم الدين فأخرجه من معتقله معززا مكرما. ^(١)

^(١) - أقباس روحانية (١٧٤-١٧٥) محمد شيت خطاب.

ثبات أحمد بن حنبل - إمام أهل السنة - رحمه الله

هيا لنعيش مع إمام أهل السنة والجماعة، وشيخ المحدثين، وعلم الدين ناصر السنة، وقامع البدعة، رافع لواء الاتباع.

يقول سيد حسين العفاني - انظريا أخي لتعرف قدر سادات الرجال، ولولا سياط على ظهر ابن حنبل ما صار إمام أهل السنة. يضرب في محنة خلق القرآن ويعذب ويخرج منه ذهباً خالصاً كانت نفسه عليه في الله تعالى أهون من نفس ذباب، وإنما تهون أنفسهم لتلمحهم العواقب، فعيون البصائر ناظرة إلى المآل لا إلى الحال، وشدة ابتلاء أحمد دليل على قوة دينه " فسبحان من أيده وبصره وقواه ونصره "

وهيا لنرى ثباته على الإيمان في تلك المحنة:

. قال صالح: قال أبي: لما جيء بالسياط نظر إليها المعتصم وقال: اتئوني غيرها، ثم قال: للجلادين تقدموا فجعل يتقدم إلي الرجل منهم فيضربني سوطين، فيقول له: شد قطع الله يدك، ثم يتنحى ويقوم الآخر فيضربني سوطين، وهو يقول في كل ذلك: شد قطع الله يدك، فلما ضربت تسعة عشر سوطاً قام إلي - يعني المعتصم - وقال: يا أحمد علام تقتل نفسك إني والله عليك لشفيق، قال: فجعل عجيف ينخسني بقائمة سيفه وقال: أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟ وجعل بعضهم يقول: ويلك الخليفة على رأسك قائم، وقال بعضهم:

يا أمير المؤمنين دمه في عنقي اقتله، وجعلوا يقولون: يا أمير المؤمنين أنت صائم وأنت في الشمس قائم، فقال: ويحك يا أحمد ما تقول؟ فأقول: أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ أقول به فرجع وجلس، وقال للجلاد: تقدم وأوجع قطع الله يدك، ثم قام الثانية فجعل يقول: ويحك يا أحمد أجبني، فجعلوا يقبلون علي ويقولون: يا أحمد إمامك على رأسك قائم، وجعل عبد الرحمن يقول: من صنع من أصحابك في هذا الأمر ما تصنع؟ وجعل المعتصم يقول: ويحك أجبني إلى شيء لك فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك يدي، فقلت: يا أمير المؤمنين أعطوني شيئاً من كتاب الله، فيرجع ويقول للجلادين تقدموا فجعل الجلاد يتقدم ويضربني سوطين ويتنحى وهو في خلال ذلك يقول: شد قطع الله يدك، قال أبي: فذهب عقلي فأفقت بعد ذلك فإذا الأقياد قد أطلقت عني، فقال لي رجل ممن حضر: إنا كبناك على وجهك وطرحنا على ظهرك بارية ودسناك، قال أبي: فما شعرت بذلك وأتوني بسويق فقالوا لي: اشرب وتقياً، فقلت: لا أفطر، ثم جيء بي إلى دار إسحاق بن إبراهيم فحضرت صلاة الظهر فتقدم ابن سماعة فصلى، فلما انفتل من صلاته قال لي: صليت والدم يسيل في ثوبك؟ فقلت: قد صلى عمر وجرحه يثغب دم^(١)

أقوال العلماء في الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله :

يقوم يعقوب بن إبراهيم بن سعد الزهري يقبل جبهة أحمد ووجهه حين خرج من الحبس، وسليمان بن داود الهاشمي يقبل جبهة أحمد ورأسه.

قال علي بن المديني يقول: اتخذت أحمد بن حنبل إماماً فيما بيني وبين الله - عز وجل - ، ومن يقوى على ما يقوى عليه أبو عبد الله.

(١) - موسوعة فقه الابتلاء (٤ / ٣٨٨)

على بن المديني يقول إن الله أعز هذا الدين برجلين ليس لهما ثالث أبو بكر الصديق يوم
الردة وأحمد بن حنبل يوم المحنة

وقال بشر بن الحارث يقول أدخل أحمد بن حنبل الكير فخرج ذهباً أحمر وآل علي فبلغ
ذلك أحمد فقال الحمد لله الذي أرضى بشراً بما صنعنا^(١)



ثبات شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

يقول الحافظ عمر بن البزار وحدثني من أثق به عن الشيخ وجيه الدين ابن المنجا قدس
الله روحه قال كنت حاضراً مع الشيخ حينئذ فجعل يعني الشيخ يحدث السلطان بقول الله
ورسوله في العدل وغيره ويرفع صوته على السلطان في أثناء حديثه حتى جثا على ركبتيه
وجعل يقرب منه في أثناء حديثه حتى لقد قرب أن تلاصق ركبته ركة السلطان والسلطان
مع ذلك مقبل عليه بكلية مصغ لما يقول شاخص إليه لا يعرض عنه وأن السلطان من
شدة ما أوقع الله ما في قلبه من المحبة والهيبة سأل من يخصه من أهل حضرته من هذا
الشيخ وقال ما معناه إني لم أر مثله ولا أثبت قلباً منه ولا أوقع من حديثه في قلبي ولا
رأيتني أعظم انقياداً مني لأحد منه فأخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل، فقال الشيخ
للترجمان قل لغازان أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاضي وإمام وشيخ ومؤذنون على ما
بلغنا فغزوتنا وأبوك وجدك كانا كافرين وما عملاً الذي عملت عاهداً فوفياً وأنت عاهدت
فغدرت وقلت فما وفيت وجرت.

^(١) -الجزء من جنس العمل (ج ٢ ص ٨٨-٩٠)

وسأله إن أحببت أن اعمر لك بلد آبائك حران وتنتقل إليه ويكون برسمك فقال لا والله لا أرغب عن مهاجر إبراهيم استبدل به غيره.

فخرج من بين يديه مكرما معززا قد صنع له الله بما طوى عليه نيته الصالحة من بذله نفسه في طلب حقن دماء المسلمين^(١)

ومن ثباته - رحمه الله - قوله ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، إن المحبوس من حبس عن ربه والأسير من أسره هو اه "

وكان يقول لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه فان رجلا شكى إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال لو صححت لم تخف أحدا أي خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك

وقال ابن كثير رحمه الله: كان أبو عبد الله البالسي يومَ قازان في جملة من كان مع الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله لمَّا تكلم مع قازان، فحكى عن كلام شيخ الإسلام تقي الدين لقازان، وشجاعته، وجراته عليه، وأنه قال لترجمانه: قل لقازان: أنت تزعم أنك مسلم، ومعك مؤذنون، وقاضي، وإمام، وشيخ على ما بلغنا، فغزوتنا، ودخلت بلادنا على ماذا؟ وأبوك وجدك هولاكو كانا كافرين، وما غزوا بلاد الإسلام بل عاهدوا قومنا، وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت، قال: وجرت له مع قازان وقُطِلوا شاه وبولاي أمورٌ ونُوب، قام ابن تيمية فيها كلها لله، وقال الحق ولم يخش إلا الله - عزَّ وجلَّ - قال: وقُرَّب إلى الجماعة طعام، فأكلوا منه إلا ابن تيمية، فقيل له: ألا تأكل؟ فقال: كيف آكل من طعامكم، وكلُّه مما نهبتم من أغنام الناس، وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس،

(١) - الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية - للحافظ عمر البزار (ص: ٢٧)

قال: ثم إن قازان طلب منه الدعاء، فقال في دعائه: اللهم إن كان هذا عبدك محمود إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا، وليكون الدين كله لك فانصره، وأيده وملّكه البلاد والعباد، وإن كان إنما قام رياء، وسمعة، وطلبًا للدنيا، ولتكون كلمته هي العليا، وليذل الإسلام، وأهله فاخذله، وزلزله، ودمّره، واقطع دابره، قال: وقازان يؤمّن على دعائه، ويرفع يديه، قال: فجعلنا نجمع ثيابنا خوفًا من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله، قال: فلمّا خرجنا من عنده قال له قاضي القضاة نجم الدين ابن صصرى وغيره: كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك، والله لا نصحبك.

فقال: وأنا والله لا أصحبكم، قال: فانطلقنا عسبة وتأخّر هو في خاصة نفسه، ومعه جماعة من أصحابه فتسامعت به الخواتين والأمرأ من أصحاب قازان، فأتوه يتبركون بدعائه، وهو سائر إلى دمشق، وينظرون إليه، قال: والله ما وصل إلى دمشق إلا في نحو ثلاثمائة فارس في ركابه، وكنت أنا من جملة من كان معه، وأما أولئك الذين أبوا أن يصحبوه، فخرج عليهم جماعة من التتر فشلحوهم عن آخرهم. هذا الكلام أو نحوه. وقد سمعت هذا الحكاية من جماعة غيره.^(١)

^(١) -[البداية والنهاية ١٤ / ١٦٦].

الباب الثالث

الثبات أمام الشهوات

الفصل الأول: وسائل الثبات على الإيمان أمام الشهوات.

الفصل الثاني: صور من الثبات على الإيمان أمام الشهوات.

الفصل الأول

وسائل الثبات على الإيمان أمام الشهوات.

في زمن استعرت فيه نار الشهوات وأطلت برأسها فهي تلفح القلوب وتحرق الوجه
في زمن أصبحت فيه الرذيلة علامة من علامات التقدم والرقى، وأضحت فيه الفضيلة
رجعية وسلبية وحالهم: { **أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ** } [النمل: ٥٦]

في زمن استعرت فيه الشهوات، وانكشفت فيه العورات، وراجت في تجارة الجسد، و
أطل الحرام برأسه، و صار الحياء سلعة نادرة ، و بات طريق الحرام ممهدا ، و وضعت
العراقيل في طريق الحلال ، و ارتدى المنكر ثياب المعروف ، و أطفئت النار بمزيد من
الخطب ، و اختلط فيه الحابل بالنابل ، و صارت ظلمات بعضها فوق بعض ، في زمن
أصبح عرض المرأة و شرفها و عفتها و جياؤها لا يساوي حذاء أو كساء فهي ضربت
بالعرض و العفة عرض الحائط من أجل إعلان هابط لسلعة من السلع ، في زمن ماتت فيه
المروءة فبكى أصحابها لفقدانها .

مررت على المروءة وهي تبكي فقلت علام تنتحب الفتاة
فقلت كيف لا أبكي وأهلي جميعا دون خلق الله ماتوا
مررت على المروءة وهي تبكي فقد قلت من الدنيا الهداة
وإن مروءة من غير دين ضلال لا تقول به الثقات
تركنا حد مولانا وراء تنازعنا بذلك النازعات
وقلدنا سوانا عن ضلال وقد لعبن بأكثرنا الغواة
أنبي الدور من أجل الملاهي وهاتيك المساجد خاويات
وكم يلقي الفساد بنا احتراماً وأهل الحق في الدنيا موات
إذا وعظ الورى الوعاظ يوما فتسخر بالكلام الناشئات
مجالات تثير لنا فسادا غوان في الصحائف عاريات
يسر بها الشباب ويقتنيها ولا يأتي الوضوء ولا الصلاة
وأوراق الملاهي في انتشار بيوت بالملاهي عامرات
وكم رمضان نحياه بإثم لياليه بلهو ساهرات
نحج البيت روادا ولكن قلوب بعد ذاك مخربات
إذا زمن فقدنا الدين فيه فأيام السعادة ذاهبات
أفتش لا أرى أهلي أمامي جميعا دون خلق الله ماتوا

في ذلك الزمن يحتاج المسلم والمسلمة في طريقهم إلى الله إلى وسائل الثبات على الإيمان أمام طوفان الشهوات ... وها هي جمعتها إليك علّها تكون قوارب النجاة إلى شط العفة والاستقامة.

أولا تقوى الله تعالى

فهي وصية الله تعالى لنا وللأمة من قبلنا { وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ } [النساء: ١٣١]

قال طلق بن حبيب رحمته الله: إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى

قالوا وما التقوى؟

"التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو رحمة الله وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخاف عذاب الله"

قال ابن مسعود وغيره في رجل سأل عن التقوى فقال: ألم تمش على طريق فيه شوك؟ فقال بلى. قال فما صنعت؟ قال شمريت واتقيت، قال فتلك التقوى.

واخذ هذا ابن المعتز فقال:

خَلَّ الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى

واصنع كما شئت فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

فالتقوى هب حص الأمان وبساط الثبات متى حققه العبد ثبت أمام سيل الشهوات، فهي ترك ما تهوى لما تخشى.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله

قال الغزالي رحمه الله: "إنما الفضيلة في أمر هذه النفس أن تقوم عليها بقوة العزم فتمنعها عن كل معصية، وتصونها عن كل فضول، فإذا فعلت ذلك كنت قد اتقيت الله تعالى في عينك وأذنك ولسانك وقلبك وبطنك وفرجك وجميع أركانك، وألجمتها بلجام التقوى، ولهذا الباب شرح يطول، وأما الذي لا بد منه هاهنا فأن نقول: من أراد أن يتقى الله فليراع الأعضاء الخمسة فإنهن الأصول: وهى العين والأذن واللسان والقلب والبطن، فيحرص عليها بالصيانة لها عن كل ما يخاف منه ضرراً في أمر الدين من معصية وحرام وفضول وإسراف من حلال،

وإذا حصل صيانة هذه الأعضاء فمرجو إن يكف سائر أركانه،

ويكون قد قام بالتقوى الجامعة بجميع بدنه لله تعالى" (١)

وكما نصحت إحدى الصالحات من السلف بنيتها، فقالت لهم: تعودوا حب الله وطاعته، فإن المتقين ألفت جوارحهم الطاعة؛ فاستوحشت من غيرها -أي: من المعصية ومن المباح- فإذا أمرهم الملعون بمعصية مرت المعصية بهم محتشمة، فهم لها منكرون.

ثانياً: مراقبة الله -تعالى- :

اعلم علمني الله وإيك - أن من أعظم وسائل الثبوت التي تصدك عن المعصية وتملاً قلبك إيماناً ومراقبة لله تعالى وهي كما فسرهما النبي صلى الله عليه وسلم عندما سأله جبريل عن الإحسان: فقال " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك "

(١) -كتاب التقوى (ص: ٢٤)

وهي دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه، فاستدامة لهذا العلم اليقني المراقبة، وهي ثمرة بأن الله سبحانه رقيب عليه، ناظر إليه، سامع لقوله، وهو مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة وكل نفس وكل طرفة عين قال الله تعالى {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا} [الأحزاب: ٥٢] وقال الله تعالى {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} [الحديد: ٤]

وقال عامر بن قيس: ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله تعالى أقرب إليه مني.
وقال محمد بن علي الترمذي اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك وأجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمة عنك وأجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه وأجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه
قال أعرابي خرجت في ليلة ظلماء فإذا أنا بجارية كأنها علم فأردتها فقالت ويلك أمالك زاجر من عقل إذا لم يكن لك ناه من دين فقلت إياها والله ما يرانا إلا الكواكب فقالت وأين مكوكبها.
وسئل الجنيد بم يستعان على غض البصر؟ قال: بعلمك أن نظر الله إليك أسبق إلى ما تنظر إليه.

وقال المحاسبي: المراقبة علم القلب بقرب الرب.

وكان الإمام أحمد ينشد:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليه يغيب

ثالثاً: تذكر حقوق المنعم

ومما يثبت العبد أن يتذكر أن عليه حقوقا لا بد أن يراها، فالله أنعم عليه، فوه يتقلب في نعمه وفي خيره.

يقول ابن الجوزي رحمه الله نازعتني نفسي إلى أمر مكروه في الشرع، وجعلت تنصب لي التأويلات، وندفع الكراهة، وكانت تأويلاتها فاسدة، والحجة ظاهرة على الكراهة. فلجأت إلى الله تعالى في دفع ذلك عن قلبي، وأقبلت على القراءة، وكان درسي قد بلغ سورة يوسف، فاتحتها، وذلك خاطر قد شغل قلبي، حتى لا أدري ما أقرأ. فلما بلغت إلى قوله تعالى: **{قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ}** [يوسف: ٢٣]، انتبهت لها، وكأني خوطبت بها، فأفقت من تلك السكر، فقلت: يا نفس! أفهمت؟ هذا حريص ظلمًا، فراعي حق من أحسن إليه، وسماه مالكا، وإن لم يكن له عليه ملك، فقال: **{إِنَّهُ رَبِّي}**، ثم زاد في بيان موجب كف كفه عما يؤذيه، فقال: **{أَحْسَنَ مَثْوَايَ}**. فكيف بك، وأنت عبد على الحقيقة لمولى ما زال يحسن إليك من ساعة وجودك، وإن ستره عليك الزلل أكثر من عدد الحصى؟!!

أفما تذكرين كيف رباك، وعلمك، ورزقك، ودافع عنك، وساق الخير إليك، وهذاك أقوم طريق، ونجارك من كل كيد، وضم إلى حسن الصورة الظاهرة جودة الذهن الباطن، وسهل لك مدارك العلوم، حتى نلت في قصير الزمان رزقك بلا كلفة تكلف، ولا كدر من، رغداً غير نزر؟!!

فوالله، ما أدري أي نعمة عليك أشرح لك، حسن الصورة، وصحة الآلات؟ أم سلامة المزاج، واعتدال التركيب؟ أم لطف الطبع الخالي عن حساسة؟ أم إلهام الرشاد منذ الصغر؟ أم الحفاظ بحسن الوقاية عن الفواحش والزلل؟ أم تحبيب طريق النقل، واتباع

الأثر، من غير جمود على تقليد لمعظم، ولا انخراط في سلك مبتدع؟ **{وَأِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا}** [إبراهيم: ٣٤].

كم كايـد نصب لك المكايـد فوقاك؟ كم عدو حط منك بالذم فـرقاك؟ كم أعطش من شراب الأمانـي خلـقاً وسقاك؟ كم أمات من لم يبلغ بعض مرادك وأبقاك؟ فأنت تصبـحين وتمسين سليمة البدن، محروسة الدين، في تزيد من العلم، وبلوغ الأمل. فإن منعت مراداً، فرزقت الصبر عنه بعد أن تبين لك وجه الحكمة في المنع، فسلمي حتى يقع اليقين بأن المنع أصلح.

ولو ذهبت أعد من هذه النعم ما سـنح ذكره، امتلأت الطروس ولم تنقطع الكتابة، وأنت تعلمين أن ما لم أذكره أكثر، وأن ما أومأت إلى ذكره لم يشرح، فكيف يحسن بك التعرض لما يكرهه؟! **{مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}** [يوسف: ٢٣].^(١)

أن رجلاً جاء إلى إبراهيم بن أدهم فقال له: يا أبا إسحاق إني مسرف على نفس، فأعرض على ما يكون لها زاجراً ومستنقذاً لقلبي قال: إن قبلت خمس خصال وقدرت عليها لم تضرك معصية ولم توبقك لذة قال: هات يا أبا إسحاق!

قال: أما الأولى: فإذا أردت أن تعصي الله عز وجل فلا تأكل رزقه، قال: فمن أين آكل وكل ما في الأرض من رزقه؟ قال: يا هذا! أفيحسن أن تأكل رزقه وتعصيه؟

قال: لا هات الثانية.

قال: إذا أردت أن تعصيه فلا تسكن شيئاً من بلاده قال الرجل: هذه أعظم من الأولى! يا هذا إذا كان المشرق والمغرب وما بينهما له فأين اسكن؟

^(١) - سيد الخاطر (ص: ١٨٨-١٨٩)

قال: يا هذا! أفيحسن أن تأكل من رزقه وتسكن بلاده وتعصيه؟ قال لا، هات الثالثة.

قال: إذا أردت أن تعصيه وأنت تحت رزقه وفي بلاده فانظر موضعاً لا يراك فيه مبارزاً له فاعصه فيه قال: يا إبراهيم! كيف هذا وهو مطلع على ما في السرائر؟

قال يا هذا أفيحسن أن تأكل من رزقه وتسكن بلاده وتعصيه وهو يراك ويرى ما تجاهر به؟ قال: لا هات الرابعة.

قال: إذا جاءك ملك الموت ليقبض روحك فق له: أخرني حتى أتوب توبة نصوحاً واعمل لله عملاً صالحاً قال: لا يقبل مني! قال يا هذا فأنت إذا لم تقدر أن تدفع عنك الموت لتتوب، وتعلم أنه إذا جاء لم يكن له تأخير، فكيف ترجو وجه الخلاص؟

قالت: هات الخامسة: قال: إذا جاءتك الزبانية يوم القيامة ليأخذوك إلى النار فلا تذهب معهم قال: لا يدعونني ولا يقبلون مني قال: فكيف ترجو النجاة إذا؟ قال له: يا إبراهيم حسبي حسبي أنا استغفر الله وأتوب إليه ولزمه في العبادة حتى فرق الموت بينهما^(١).

رابعا: نتائج الشهوات

يقول ابن الجوزي رحمه الله: من وقف على موجب الحس هلك. ومن تبع العقل سلم، لأن مجرد الحس لا يرى إلا الحاضر وهو الدنيا. وأما العقل فإنه ينظر إلى المخلوقات، فيعلم وجود الخالق ويعلم أنه قد منح وأباح وأطلق وحظر، وأخبر أنني سائلكم ومبتليكم ليظهر دليل وجودي عندكم بترك ما تشتهون طاعة لي.

وإني قد بنيت لكم داراً غير هذه لإثابة من يطيع وعقوبة من يخالف.

^(١) - شرح المعرفة وبذل النصيحة تح: شيخنا مجدي فتحي السيد (٢٠-٢١)

ثم لو ترك الحس وما يشتهي مع أغراضه قرب الأمر إنما يزني فيجلد، ويشرب الخمر فيعاقب، ويسرق فيقطع ويفعل ذلة فيفضح بين الخلق.

ويعرض عن العلم إلى البطالة فيقع الندم عند حصول الجهل.

ثم إنا نرى الكثير ممن عمل بمقتضى عقله قد سلمت دنياه وآخرته، وميز بين الخلق بالتعظيم، وكان عيشه في لذاته غالباً خيراً من عيش موافق للهوى.

فليعتبر ذو الفهم بما قلت، وليعمل بمقتضى الدليل وقد سلم.^(١)

ويقول ابن القيم رحمه الله: وقد عدد آثار الذنوب: قلة التوفيق وفساد الرأي وخفاء الحق وفساد القلب وخمول الذكر وإضاعة الوقت ونفرة الخلق والوحشة بين العبد وبين ربه ومنع إجابة الدعاء وقسوة القلب ومحقق البركة في الرزق والعمر وحرمان العلم ولباس الذل وإهانة العدو وضيق الصدر والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت وطول الهم والغم وضنك المعيشة وكسف البال تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله كما يتولد الزرع عن الماء والإحراق عن النار وأضداد هذه تتولد عن الطاعة.^(٢) فمن راقب الله - عز وجل - ونظر إلى العواقب والتتائج ثبت على إيمانه "فمن أصلح سريره فاح عبير فضله وعبقت القلوب ببشر طيبه"

واسمع إلى ابن عباس رضي الله عنهما وهو يكشف لك عن عواقب الحسنة وعواقب السيئة يقول: "إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونوراً في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه، وظلمة في القبر والقلب، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضاً في قلوب الخلق".

(١) - صيد الخاطر (٤١٤-٤١٥)

(٢) - الفوائد لابن القيم (ص: ٤٧)

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: "ليتق أحدكم أن تلعنه قلوب المؤمنين وهو لا يشعر، قيل: كيف؟ قال: يخلو بالمعاصي فيلقي الله له البغض في قلوب الناس"

أخي المسلم ... إذا وجدت من إخوانك جفاء فذلك لذنوب أحدثته فتب إلى الله، وإذا وجدت منهم زيادة محبة فذلك لطاعة أحدثتها فاشكر الله عليها.

ويقول ابن الجوزي رحمه الله: الحذر الحذر من المعاصي فإنها سيئة العواقب، والحذر الحذر من الذنوب خصوصاً ذنوب الخلوات، فإن المبارزة لله تعالى تسقط العبد من عينه سبحانه ولا ينال لذة المعاصي إلا دائم الغفلة، فأما المؤمن اليقظان فإنه لا يلتذ بها، لأنه عند التذاذة يقف بإزائه علمه بتحريمها وحذره من عقوبتها، فإن قويت معرفته رأى بعين علمه الناهي وهو الله فيتغنص عيشه في حال التذاذة فإن غلبه سكر الهوى كان القلب متنغصاً بهذه المراقبات وإن كان الطبع في شهوته فما هي إلا لحظة ثم خزي دائم وندم ملازم وبكاء متواصل وأسف على ما كان مع طول الزمان حتى إنه لو تيقن العفو وقف بإزائه حذار العتاب فأف للذنوب ما أقيح آثارها وأساء أخبارها، ولا كانت شهوة لا تنال إلا بمقدار قوة الغفلة " (١)

خامساً - مجاهدة النفس

اعلم - علمني الله وإياك - أن مما يثبت العبد أمام طوفان الشهوات و يكسر جماحها مجاهدة النفس على ترك الشهوة، فلا ينصر العبد على عدوه إلا إذا جاهده وقاومه ولا يصل العبد إلى مبتغاه من رضى الله تعالى والاستقامة على الصراط إلا بالمجاهد قال الله سبحانه وتعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}

[العنكبوت: ٦٩]

(١) - موارد الظمان لدروس الزمان (٥ / ٣٣)

يقول إبراهيم الدويش: فإن أردت فلا بد من الصبر و التحمل ففي الحديث : ما عطي أحد عطاء هو خير و أوسع من الصبر " (كما في الصحيحين) و تبقى العزيمة و الإصرار و الهمة العالية هي مفتاح بيدي كل شاب و بيد كل فتاة بعد توفيق الله، و لذلك لا بد أن تجاهد أنفسنا لا بد أن تخاطبها :

ذريني أنل ما لا ينال من العلى فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل

تريدين إدراك المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من إبر النحل

نعم لا بد من الممرارة خاصة في هذا الزمان لا بد من إبر النحل، لا يخلو الطريق من عقبات، لا يخلو من فتن وشهوات وشبهات، فاصبر ﷺ إنها لحظات حتى يقال: فلان مات، ثم هي جنات عرضها كعرض الأرض و السموات بخ بخ " (١)

ويقول ابن القيم رحمه الله "وملاك الأمر كله الرغبة في الله وإرادة وجهه والتقرب إليه بأنواع الوسائل والشوق إلى الوصول إليه وإلى لقائه فإن لم يكن للعبد همة إلى ذلك فالرغبة في الجنة ونعيمها وما أعد الله فيها لأوليائه فإن لم تكن له همة عالية تطالبه بذلك فخشية النار وما أعد الله فيها لمن عصاه فإن لم تطاوعه نفسه بشيء من ذلك فليعلم أنه خلق للجحيم لا للنعيم ولا يقدر على ذلك بعد قدر الله وتوفيقه إلا بمخالفة هواه فهذه فصول أربعة هن ربيع المؤمن وصيفه وخريفه وشتاؤه وهن منازل في سيره إلى الله عز و جل وليس له منزلة غيرها فأما مخالفة الهوى فلم يجعل الله للجنة طريقا غير مخالفته ولم يجعل للنار طريقا غير متابعتها قال الله تعالى { فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ

الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ

الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى } [النازعات: ٣٧ - ٤١]

(١) - الثبات في زمن المتغيرات (ص : ٥٦-٥٧)

وقال تعالى {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ} [الرحمن: ٤٦]

قل هو العبد يهوى المعصية فيذكر مقام ربه عليه في الدنيا ومقامه بين يديه في الآخرة
فيتركها لله ^(١)

لا خير فيمن لا يراقب ربه عند الهوى ويخافه إيماناً
حجب التقى سبل الهوى فأخو التقى يخشى إذا وفى المعاد هواناً

الفصل الثاني

صور من الثبات على الإيمان أمام الشهوات

ثبات نبي الله يوسف عليه السلام

يقول ﷺ: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} (٢٢) وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي
هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ
إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ
عَنْهُ الشُّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ
وَأَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
(٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ

^(١) -روضة المحبين (ص: ٤١)

وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ { [يوسف: ٢٢-٢٨]

في هذا المشهد القرآني الذي صور الله تعالى فيه ما حدث للكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم الصلاة والسلام - حيث ثبت يوسف عليه السلام على تلك الفتنة واستعان على ذلك بالاعتصام بالله عز وجل - معاذ الله - ولقد كادت تلك المرأة ليوسف عليه السلام واستعانت على إيقاعه في الحرام بوسائل متعددة:

أولاً: راودته هي، فلم يبدأ الشر منه ولكن بدأ منها، والمرأة إذا دعت الرجل إلى الحرام غير إذا دعي الرجل المرأة للحرام، لأنها إذا دعت الرجل إلى الحرام أزال الحواجز النفسية فالرجل يخشى إذا دعا المرأة إلى الحرام أن ترفض أو تستنجد بأهلها لكن إذا المرأة دعت للحرام...، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في السبعة الذين يظلمهم الله في ظله (ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال) .

لماذا؟ لأن الحرام صار سهل لأنها هي التي دعت.

ما هي وسائل الجذب؟

أولاً: راودته.

ثانياً: هو في بيتها أي ليس غريباً، يُشك فيه إذا دخل البيت.

ثالثاً: أنها غلقت الأبواب وغاب الرقيب وهذا أدعى للوقوع في الحرام.

رابعاً: أنها شجعت على ذلك وقالت هيت لك. تعالى..... هيا.

خامساً: أنه كان شاباً، وداعي الزنا عند الشباب أكبر.

سادسا: أنها كانت سيدته لها عليه الأمر والنهي والطاعة.

سابعا: كان عبداً وداعي الزنا عند العبد أكبر من الحر لأن الحر يخشى الفضيحة أما العبد فينظر إليه من مستوى أدنى.

ثامنا: أن الرجل كان غريباً عن البلد، والغريب لا يخشى الفضيحة مثل بن البلد ويوسف كان غريباً.

تاسعا: أن المرأة كانت جميلة وداعي الزنا بالجميلة أكبر.

عاشرا: أن المرأة كانت ذات سلطان تدافع عنه يعنى عن حبيبها فيكون داعي الزنا أكبر.

حادي عشر: أن زوجها ما عنده غيره فهو بالرغم من علمه بما حصل إلا انه أبقى الحبل على الغارب، فما اخرج يوسف وفصله عن زوجته وبقي الأمر كما هي عليه فقط يعنى (أعرض عن هذا) (استغفري لذنبك) .

ثاني عشر: أنها استعانت عليه بكيد النسوة زيادةً للفتنة.

ثالث عشر: أنها هددته بالسجن.

إذاً هناك أسباب كثيرة جداً داعية إلي أنه يزنى ومع ذلك صمد فلم يزنى و بالتالي فإنه بلغ عند الله شأنًا عظيمًا .^(١)

حاله **الصلوة**:

إذا هممنا صدنا وازع التقى فولى على أعقابهم خاسئا

وهكذا ضرب نبي الله أعظم مثالا للثبات أم الشهوات فماذا كان جزائه **الصلوة** :

^(١) - ١٠٠ فائدة من سور يوسف (ص: ١٤-١٦)

يقول ﷺ: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف: ٢١]

قال ابن جرير : يتخذ منها منزلا حيث يشاء بعد ضيق الحبس و الأسر

وقال سيد قطب: على هذا النحو مكنا ليوسف في الأرض، وثبتنا قدميه، وجعلنا له فيها مكانا ملحوظا. والأرض هي مصر.

أو هي هذه الأرض كلها باعتبار أن مصر يومذاك أعظم ممالكها.

{يتبوأ منها حيث يشاء} ... يتخذ منها المنزل الذي يريد، والمكان الذي يريد، والمكانة التي يريد. في مقابل الحب وما فيه من مخاوف، والسجن وما فيه من قيود.

{نصيب برحمتنا من نشاء} ... فنبدله من العسر يسرا، ومن الضيق فرجا، ومن الخوف أمنا، ومن القيد حرية، ومن الهوان على الناس عزا ومقاما عليا. "ولا نضيع أجر المحسنين".

الذين يحسنون الإيمان بالله، والتوكل عليه، والاتجاه إليه، ويحسنون السلوك والعمل والتصرف مع الناس هذا في الدنيا "وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ" ... فلا ينقص منه المتاع في الدنيا وإن كان خيرا من متاع الدنيا، متى آمن الإنسان و اتقى. فاطمأن بإيمانه إلى ربه، وراقبه بتقواه في سره وجهره.

وهكذا عوض الله يوسف عن المحنة، تلك المكانة في الأرض، وهذه البشري في الآخرة جزاء وفاقا على الإيمان والصبر والإحسان.^(١)

(١) - في ظلال القرآن (٤/ ٢٠١٤)

ويقول ابن القيم: من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه من جنسه، لما احتمل يوسف ضيق السجن شكر له ذلك بأن مكن له في الأرض يتبوا منها حيث يشاء.^(١)

ثبات جريح ﷺ

وهيا لنرى الثبات أمام الشهوات في قصة عابد من بني إسرائيل ذكرها لنا النبي ﷺ كدرس من دروس التربية بالقصة فقد أخرج البخاري و مسلم : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: ".... وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلًا عَابِدًا، فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً، فَكَانَ فِيهَا، فَاتَّهَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمُؤْمِسَاتِ، فَتَذَاكِرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ وَكَانَتْ امْرَأَةً بَغِيًّا يَتِمَثَّلُ بِحُسْنِهَا، فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتُمْ لَا أَفْتِنَنَّكُمْ، قَالَ: فَتَعَرَّضْتُ لَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ، فَأَمَكَّتَهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ قَالَتْ: هُوَ

(١) - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (١/ ٤٧)

مِنْ جُرَيْجٍ، فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا:
زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغْيِيِّ، فَوَلَدَتْ مِنْكَ، فَقَالَ: أَيْنَ الصَّبِيِّ؟ فَجَاءُوا بِهِ، فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى أَصَلِّيَ،
فَصَلَّى، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ، وَقَالَ: يَا غُلَامُ مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: فُلَانُ
الرَّاعِي، قَالَ: فَأَقْبِلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يَقْبَلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ، وَقَالُوا: نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ
ذَهَبٍ، قَالَ: لَا، أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ، فَفَعَلُوا. ^(١)

ثبات الربيع بن خثيم رحمته الله

الربيع بن خثيم من كبار التابعين ن وقد صحب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وعش معه سنين
طويلة حتى أن ابن مسعود رأى ورعه وتقواه قال له: يا أبا يزيد لو رآك رسول الله صلى الله عليه وسلم
لأحبك اسمع يارعاك الله إلى شدة حياء الربيع.

عن أبي عبيدة قال: وكان الربيع إذا جاء إلى باب عبد الله يقول للجارية - يعني ابن

مسعود-: من بالباب؟

فتقول: ذاك الشيخ الأعمى، و عن علقمة بن مرثد قال: انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين
و منهم الربيع بن خثيم.

و عن مالك بن دينار قال: قالت ابنة الربيع بن خثيم: يا أبتاه، إني أرى الناس ينامون و لا
تنام؟

^(١) - أخرجه : البخاري ٢٠١/٤ (٣٤٣٦) ، ومسلم ٤/٨ (٢٥٥٠) (٨) .

قال إن جهنم لا تدعني أنام .

ذاك هو الربيع بن خثيم لإيمانه في قلبه كالجبل لا يزول ولا يتأثر بمغريات الحياة وذلك لأن الربيع علم الداء والدواء، فعن الربيع بن خثيم أنه قال لأصحابه: أتدرون ما الداء والدواء و الشفاء؟

قالوا: لا، قال الداء الذنوب والدواء الاستغفار، والشفاء أن تتوب فلا تعود.

وهيا لنرى كيف ثبت الربيع أمام الشهوة؟

كان يعيش في مدينة التابعي الجليل قوم ليسوا ناس ولكنهم من شياطين الإنس بيتوا النية في نفوسهم أمرا شريرا بحق الربيع وأقدموا على تنفيذه

- ما هو هذا الأمر الشرير: ذهب هؤلاء الخبثاء إلى امرأة كانت آية في الجمال و الحسن و طلبوا منها أن تفتن الربيع بأن تقبله و لها ألف درهم إن هي فعلت لك ، ووافقت المرأة بكل سعادة و قالت لهم : ولكم علي أكثر من القبله ، و قامت هذه الفاتنة بلبس ما عندها من الثياب و أكثرها تكشفا و تعريا ، و تطيبت بأفضل ما لديها من عطور وروائح ذكية .

و حين خرج الربيع من المسجد وإذا بهذه المرأة وهي تنتظر في زاوية طريقه وقد تكشفت له وظهر حسننها وجمالها الذي يخلب الأذهان ويأسر القلوب وفي هذه اللحظة تذكر الربيع عقاب الله لمن ارتكب مثل هذه المعصية فارتفع بنفسه وبروحه عن أتات مثل ذلك و أخذت المرأة تقترب من ليرى هذا الجمال الفاتن و يشم هذه الروائح العطرة و هي تقترب و تتعري له .

قال الربيع: بكل عزة وعفة: كيف بك لو قد نزلت بك الحمى فغيرت ما أرى من لونك وبهجتك؟ أم كيف بك إذا نزل بك ملك الموت فقطع منح حبل الوريد الوتين؟

أم كيف بك لو سألك منكر ونكير؟ أم كيف بك؟؟

وبعد هذه الموعظة الزاجرة وهذه الكلمات الربانية التي ترحح الجبال، وتحط الصخور، ترى ماذا فعلت المرأة الفاتنة؟

هل زادت في تعريها وتكشفها لتفتن الربيع وتحصل على الألف درهم؟

صرخت المرأة صرخة وسقطت مغشيا عليها وبعد أن فاقت المرأة تابت توبة نصوحا وأخذت تعبد الله حق عبادته العبادة وتقوم الليل وتصوم النهار.

إنها صورة من أروع صور الثبات على الإيمان أمام أعظم الفتن إنها فتنة الشهوة ولكن ما الذي جعل الربيع يقف أمام تلك الفتنة بكل ثبات وإيمان؟
إنها: مراقبة الله سبحانه وتعالى.

يقول ابن القيم رحمه الله "والمقصود أنه سبحانه فتن أصحاب الشهوات بالصور الجميلة، وفتن أولئك بهم، فكل من النوعين فتنة للآخر، فمن صبر منهم على تلك الفتنة نجا مما هو أعظم منها، ومن أصابته تلك الفتنة سقط فيما هو شر منها، فإن تدارك ذلك بالتوبة النصوح، وإلا فبسييل من هلك، ولهذا قال النبي ﷺ "ما تركت بعدي فتنة أضر من النساء على الرجال" ^(١) أو كما قال.

فالعبد في هذه الدار مفتون بشهواته، ونفسه الأمارة، وشيطانه المغوي المزين، وقُرْناؤه، وما يراه ويشاهده مما يعجز صبره عنه، ويتفق مع ذلك ضعف الإيمان واليقين، وضعف القلب، ومرارة الصبر، وذوق حلاوة العاجل، وميل النفس إلى زهرة الحياة الدنيا، وكون

^(١) - أخرجه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠) عن أسامة بن زيد.

العوض مؤجلاً في دار أخرى غير هذه الدار التي منها خلق، وفيها نشأ، فهو مكلف بأن يترك شهوته الحاضرة المشاهدة لغيب طُلب منه الإيمان به:

فَوَاللَّهِ لَوْ لَا اللَّهُ يُسْعِدُ عَبْدَهُ بِتَوْفِيقِهِ وَاللَّهُ بِالْعَبْدِ أَرْحَمُ
لَمَّا ثَبَّتَ الْإِيمَانُ يَوْمًا بِقَلْبِهِ عَلَى هَذِهِ الْعِلَالِ وَالْأَمْرُ أَعْظَمُ
وَلَا طَاوَعَتْهُ النَّفْسُ فِي تَرْكِ شَهْوَةٍ مَخَافَةَ نَارٍ جَمْرُهَا يَتَضَرَّمُ
وَلَا خَافَ يَوْمًا مِنْ مَقَامِ إِلَهِهِ عَلَيْهِ بِحَكْمِ الْقِسْطِ إِذْ لَيْسَ يَظْلَمُ^(١)



ثبات سليمان بن يسار وعطاء بن يسار - رحمهما الله -

عن مصعب بن عثمان قال: كان سليمان بن يسار من أحسن الناس وجهاً. فدخلت عليه امرأة فسألته نفسه فامتنع عليها. فقالت له: ادنُ فخرج هارباً عن منزله وتركها فيه. قال سليمان: فرأيت بعد ذلك يوسف عليه السلام فيما يرى النائم، وكأني أقول له: أنت يوسف؟ قال: نعم أنا يوسف الذي هممتُ وأنت سليمان الذي لم تهمل. وقد رويت لنا هذه القصة عن عطاء بن يسار أخي سليمان والله أعلم.

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: خرج عطاء بن يسار وسليمان بن يسار حاجين من المدينة، ومعهما أصحاب لهم، حتى إذا كانوا بالأبواء نزلوا منزلاً. فانطلق سليمان وأصحابه لبعض حاجتهم وبقي عطاء بن يسار قائماً في المنزل يصلي.

^(١) - إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان (٥١٤)

قال: فدخلت عليه امرأة من الأعراب جميلة فلما رآها عطاء ظن أن لها حاجة فأوجزَ في صلاته، ثم قال: ألك حاجة؟ قالت: نعم. قال: ما هي؟ قالت: قم فأصِبْ مني فإني قد ودِقتُ ولا بعل لي فقال: إليك عني لا تحرقيني ونفسك بالنار.

ونظر إلى امرأة جميلة، فجعلت تراوده عن نفسه ويأبى إلا ما يريد. قال: فجعل عطاء يبكي ويقول: ويحك إليك عني. قال: اشتد بكأؤه فلما نظرت المرأة إليه وما داخله من البكاء والجزع بكت المرأة لبكائه. قال: فجعل يبكي والمرأة بين يديه تبكي. فبينما هو كذلك إذا جاء سليمان من حاجته فلما نظر إلى عطاء يبكي والمرأة بين يديه تبكي في ناحية البيت بكى لبكائهما لا يدري ما أبكاهما وجعل أصحابهما يأتون رجلاً رجلاً كلما أتى رجل فرآهم يكون جلس يبكي لبكائهم لا يسألهم عن أمرهم حتى كثر البكاء وعلا الصوت. فلما رأت الأعرابية ذلك قامت فخرجت.

قال: فقام القوم فدخلوا. فلبث سليمان بعد ذلك وهو لا يسأل أخاه عن قصة المرأة إجلالاً له وهيبة. قال: وكان أسنَّ منه.

قال ثم إنهما قدما مصر لبعض حاجتهما فلبثا بها ما شاء الله فيينا عطاء ذات ليلة نائم إذ استيقظ وهو يبكي، فقال سليمان: ما يبكيك يا أخي؟ قال: فاشتد بكأؤه. قال: ما يبكيك يا أخي؟ قال: رؤيا رأيتها الليلة. قال، وما هي؟ قال لا تخبر بها أحداً ما دمتُ حياً: رأيت يوسف النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فجئت أنظر إليه فيمن ينظر إليه فلما رأيت حسنه بكيت فنظر إليّ في الناس فقال: ما يبكيك أيها الرجل؟ فقلت: بأبي أنت وأمي يا نبي الله، ذكرتكَ وامرأة العزيز وما أبتليتَ به من أمرها وما لقيتَ من السجن وفرقة يعقوب، فبكيت من ذلك وجعلت أتعجب منه. قال: فهلا تعجبت من صاحب المرأة البدوية بالأبواء؟ فعرفت الذي أراد فبكيت واستيقظت باكياً.

قال سليمان: أي أخي وما كان من حال تلك المرأة؟ فقَصَّ عليه عطاء القصة فما أخبر بها سليمان أحداً حتى مات عطاء فحدث بها بعده امرأة من أهله قال: وما شاع هذا الحديث بالمدينة إلا بعد موت سليمان ابن يسار رضي الله عنهما.^(١)

ثبات السري بن دينار – رحمه الله

نزل السري بن دينار في دار بمصر، كانت فيه امرأة جميلة، تفتن الناس بجمالها، بعض النساء وبعض الفتيات للأسف يتعمدن فتنة الناس، ولا تخف من رب الناس، وكان هذا الرجل صالحاً عابداً، فعلمت المرأة به فقالت: لأفتننه، لأفتنن هذا الشاب، فدخلت من الباب فكشفت وأظهرت نفسها، و السري أمامها، فقال لها: مالك يا فلانة؟ فقالت له: هل لك في فراشٍ طيب وعيش رخي؟ فقال لها:

وكم ذي معاصٍ نال منهن لذة فلما تخلّاها وذاق الدواها
تزول ملذات المعاصي وتنقضي وتبقى تباعات المعاصي كما هيا
فواسوءتا والله راءٍ وسامعٌ لعبدٍ بعين الله يغشى المعاصيا

فصاحت المرأة وبكت، وأعلنت توبتها لله عز وجل.^(٢)

عبيد بن عمير - رحمه الله -

ذكر أبو الفرج: أن امرأة جميلة كانت بمكة، وكان لها زوج، فقالت: هل يرى أحد وجهي وجمالي ولا يفتن بي، كانت تفرح بذلك، فقال لها: نعم.

^(١) - صفة الصفوة (١/ ٢٩١-٢٩٢)

^(٢) - ذم الهوى (ص: ٢٣٥)

عبيد بن عمير، فقالت: أتأذن لي في فتنته، فأذن لها، فأنت لعمير كالمستفتية في ناحية من المسجد الحرام، فكشفت عن وجهها، فقال: استتري، فقالت: إني قد فتنك بك، فقال لها: إني سائلك عن شيء، فإن أنت صدقتني نظرت في أمرك، قالت: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك، فقال: أخبريني: لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك، أكان يسرك أن أقضي لك هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو دخلت القبر وأجلست للمسائلة أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟

قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو أن الناس أعطوا كتبهم ولا تدرين تأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك، أكان يسرك أن أقضي لك هذه الحاجة؟ قالت: لا، قال: صدقت، قال: فلو أردت المرور على الصراط ولا تدرين هل تنجين أو لا تنجين، أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: لا، قال: صدقت، قال: فلو جيء بالميزان وجيء بك فلا تدرين أيخف ميزانك أم يثقل، أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو وقفت بين يدي الله للمسائلة، أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: اتقي الله فقد أنعم الله عليك وأحسن إليك، قال: فرجعت إلى زوجها، فقال: ما صنعت؟ قالت: أنت بطل ونحن بطالون -البطال: الذي ليس عنده عمل- فأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة، وكان زوجها يقول: ما لي ولعمير أفسد علي امرأتي، كانت في كل ليلة عروساً، فصيرها راهبة.^(١)

منزلة التائبين

عن بكر بن عبد الله المزني. أن قصاباً ولع بجارية لبعض جيرانه فأرسلها أهلها في حاجة لهم إلى قرية أخرى فتبعها فراودها عن نفسها فقالت: لا تفعل! لأننا أشد حبا لك منك لي

(١) - ذم الهوى (ص ٢١٠-٢١١)

ولكنني أخاف الله قال: فأنت تخافينه وأنا لا أخافه؟! فرجع تائباً فأصابه العطش حتى كاد ينقطع عنقه فإذا هو برسول لبعض أنبياء بني إسرائيل فسأله قال: ما لك؟ قال: العطش قال: تعال حتى ندعو الله حتى تظلنا سحابة حتى ندخل القرية قال: ما لي من عمل قال: فأنا أدعو وأمن أنت قال: فدعا الرسول وأمن هو فأظلتهم سحابة حتى انتهوا إلى القرية. فأخذ القصاب إلى مكانه ومالت السحابة فمالت عليه فرجع الرسول فقال: زعمت أن ليس لك عمل وأنا الذي دعوت وأنت الذي أمنت فأظلتنا سحابة ثم تبعتك لتخبرني ما أمرك فأخبره فقال الرسول: التائب إلى الله بمكان ليس أحد من الناس بمكانه.^(١)

ثبات أبي بكر المسكي رضي الله عنه

قيل لأبي بكر المسكي: إنا نشم منك رائحة المسك مع الدوام، فما سببه؟ فقال: والله لي سنين عديدة لم أستعمل المسك، ولكن سبب ذلك أن امرأة احتالت عليّ حتى أدخلتني دارها، وأغلقت دوني الأبواب، وراودتني عن نفسي، فتحيرت في أمري، فضاقت بي الحيل، فقلت لها: إن لي حاجة إلى الطهارة، فأمرت جارية لها أن تمضي بي إلى بيت الراحة، ففعلت.

فلما دخلت بيت الراحة أخذت العذرة، وألقيتها على جسمي، ثم رجعت إليها، وأنا على تلك الحالة، فلما رأني دهشت، ثم أمرت بإخراجي فمضيت واغتسلت.

^(١) - التوابين لابن قدامة (ص: ٥٢) ذم الهوى (ص: ٢٦٩)

فلما كانت تلك الليلة رأيت في المنام قائلاً يقول لي: "فعلت ما لم يفعله أحد غيرك، لأطيين ريحك في الدنيا والآخرة" فأصبحت والمسك يفوح مني، واستمر ذلك إلى الآن.^(١)

الموت ولا معصية ربي

روي أن بعض النبلاء علم برجل مجاب الدعوة عند الله. فذهب إليه وتظاهر بمظهر الضيفان فأضافه وقام عنده ثلاث ليالي فلم يرى منه شيئاً غريباً من طاعة الله أو عبادة، فسأله عن سبب إجابة دعائه فقال: يا هذا تلك دعوة نفس عضها الجوع وصدقت لله تعالى في سجودها وركوعها فأجاب الله دعاها واعطاها منها؛ فقال: وكيف ذلك؟ فحدثه أنه حصل في بلد قحط في عام من الأعوام وفي ليلة قرع الباب قارع فخرجت وإذا بشابة جميلة جداً تبدو كأنها الشمس في وسط النهار فشكت لي جوعها فحادثتها ثم راوتها عن نفسها فقالت: الموت لا معصية ربي ثم رجعت من حيث أتت وبعد أيام عادت وتوسلت إلي فقلت كما قلت أولاً فبكت ثم دخلت وقد أشرفت على الهلاك ثم قالت: تطعمني لوجه الله؟

فقلت: لا إلا أن تمكيني من نفسك فقالت الموت خير من عذاب الله ثم قامت فسرت خلفها فسمعتها تقول:

أيا واحداً إحسانه شمل الخلقا بسمعك ما أشكو بعينك ما ألقى

لقد صدمتني شدة وخصاصة ونازلني ما بعضه يمنع النطقا

كأنني ظمآن ترى الماء عينه فلا غله تروى ولا شربة تسقى

^(١) - المواعظ والمجالس لابن الجوزي (ص: ٢٢٤)

تنازعني نفسي إلى نيل أكله لذاذتها تفنى وغصتها تبقا

أأعصيك بعد الفضل والجود والهدى وكيف وبالطاعات استجلب الرزقا

فجزعت لما سمعت ذلك ثم دخل قلبي الإيمان بالله وحب الخير فقلت لها: عودي
وكلي ما شئت الموت لا معصية ربي ي فعاتت وهي في حالة ضعف لا تكاد يسمع لها
صوت فقدمت لها الطعام فقالت: (اللهم كما أنرت قلبه وهديت لُبه فأجب دعاءه ولا ترده
خائبا) فكان ما دعت به ثم تزوجتها وصارت لي زوجة والحمد لله

شمعة وعفيف

يقول النبي ﷺ " سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ورجل دعت امرأته
ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله " (١)

هذا القول من النبي - صلى الله عليه وسلم يصدق بكل المعايير على بطل قصتنا وعفيف
روائتنا، فقد تربى هذا الشاب على معاني الصلاح والاستقامة منذ نعومة أظفاره وذلك
بفضل الله أولا ثم تربية والديه له التربية الطيبة، ونشأ الشاب في عبادة الله وكبر حتى
أصبح من الضروري أن يتعد عن هذا الكنف الطيب حيث استكمال دراسته و سافر
الفتى بعيدا عن والديه واستقر في سكن صغير أحبه أهل الحي الذي يسكنه وفرحوا بقربه
فكان مثلا للأخلاق الفاضلة ، ومما زاد من حبه في نفوسهم خدمته لهم وطيب معشره ،
و كأنه يريد الخير الذي يتحدث عنه النبي ﷺ " خير الناس أنفعهم للناس " وكثيرا ما
يتحدث الناس عنه مدحا و ثناء على أخلاقه و صفاته الحسنة ، و كان في الحي فتاة
مراهقة جميلة تستمع إلى أحاديث الناس عنه فأجبت به وباتت و تسترق النظرات إليه
و تتحين الفرص للتمتع بمشاهدته و تتمنى أن يجلس معها تحدثه و تنظر إليه عن قرب ،

(١) - أخرجه أحمد (٤٣٩/٢ ، رقم ٩٦٦٣) ، والبخاري (٢٣٤/١ ، رقم ٦٢٩) ، ومسلم (٧١٥/٢ ، رقم ١٠٣١)

وأخذت الفتاة تخطط لكي ترى الفتى و لكي تكشف له عما تكنه في صدرها و في يوم من الأيام حين كان الفتى يسير في الطريق بالقرب من بيت الفتاة نادى عليه فنظر إليها ثم أنزل نظره ، ثم دعتة إلى الدخول لدارها قائلة له : إن لدينا أشياء لا نستطيع حملها فيها ساعدتنا ؟

و لأن الفتى معروف بحبه للخير و حرصه على مساعدة الناس لم يمانع و لكنه قال لها : أخبري من في البيت أنني قادم و توارى قليلا ، دخل الفتى وحمل ما أشارت له عليه و خرج بكل سرعة ، فتحسرت الفتاة على أنه لم يمكث كثيرا بالقرب منها ، هذه الرؤية العابرة لم تشبع ما في الفتاة فكانت تريد أكثر من ذلك ، وفي مساء بارد و السماء تمطر بغزارة و الشاب جالس في منزلة يردد " اللهم أغثنا " و هو يجلس بالقرب من شمعة يتصفح كتابا و إذا بالباب يطرق بشدة فينصت الشاب و إذا بالطرقات تزداد فيذهب الفتى و هو متعجب : من عساه يكون هذا الزائر في الليل الممطر ؟

و فتح الباب و إذا بالفتاة نفسها تقذف بنفسها على الأرض تحت الفتى و هو لا يدرك ما الأمر إلا أن الفتاة تحدثت بعد لحظات و قالت : جئت إليك لكي أحتمي في دارك من البرد و المطر ، ، ولا زالت الفتاة على الأرض ، وقد هال الفتى ما شاهد من جمالها و هي ملقاة على الأرض ، و لكنه تذكر خطورة موقفه و هذه الفتنة العظيمة التي يعيشها ، و زادت ضربات قلبه بسرعة ، و اشتد شهيقه و زفيره فالتفت الشاب و إذا به يشاهد شمعته التي يستضيء بها فتوجه بكل سرعة عليها و وضع أصابعه عليها و هو لا يحس ورائحة شواء لحمه تفوح ، و الفتاة تنظر إليه و هي في أقصى حالات الهلع مما يشاهده و بعد فترة من الزمن صرخ الفتى من حرارة النار ، و ركض خارج البيت وترك الفتاة ، في داره و بعد أن انقضى أكثر الليل و هو خارج البيت منزله عاد فلم يجد الفتاة في داره فحمد الله على

نجاته من هذا الموقف و هو يقول في نفسه : فإن لم أستطع الصبر على حرارة شمعة صغيرة فكيف أصبر على نر وقودها الناس والحجارة ؟!!!

لا أستطيع حين خرجت الفتاة إلى بيت أهلها ازداد حب الفتى في نفسها وقد علمت أنه لا يريد لها في الحرام فكيف الوصول إليه لابد أن أتزوجه لابد.

تحدثت الفتاة لوالدها عن الشاب و أنها تريد الزواج منه و لم يكن الوالد يتمنى أكثر من أن يزوج ابنته من هذا الفتى الصالح، فعلا في الصباح توجه الأب إلى الفتى الصالح و قال: يا بني: إنني أريد أن أزوجك ابنتي فوافق و حينها تذكر الشاب أن من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه فحين ترك الحرام خوفا من الله هيأه الله إليه في الحلال .

ثبات عبد العزيز الهندي رحمه الله

وقعت هذه الحادثة التي تشع عفافا ومخافة لله تعالى في مصر و كانت مصر في ذلك الزمن مستعمرة بريطانية ، أما صاحب قصتنا و بطلها فهو شاب فقير ماديا و لكنه كان وافر الغنى روحيا و إيمانيه و هو عبد العزيز الهندي الذي كان يعمل ترزيا في المعسكر البريطاني ، وذات يوم طلب للعمل خارج معسكره و كانت التي دعت زوجته أحد كبار الضباط الإنجليز ، و ذهب عبد العزيز إلى منزلها و طرق الباب ففتحت له الباب و دخل يصلح لهم ما طلبوه لشأنه و لكنه حينما دخل رأى المرأة تنظر إليه نظرات مريبة ، و بعد قليل أفصحت له عما في نفسها الشيطانية وقالت له بكل وقاحة و جرأة أنها تريد أن تعمل الفاحش معه .

فبهت عبد العزيز حين ذلك فأخذت تغريه بالهدايا و جزيل الأموال فأخذ هو يخوفها و يزجرها و يذكرها بأن العمل منافي للخلق و لا تقبله أي شريعة سماوية ، و لكن المرأة تلبسها الشيطان تصر على أمرها ، و عندما رأت أنه لن ينفذ ما أرادت بسهولة أخذت

تهدهده وهي تقول له : إن لم تفعل ما طلبته فإنني سأقتلك و سأقول : إنه هجم علي في منزلي ، و حار عبد العزيز في أمره ماذا يفعل و في لحظه و المسدس مصوب على صدره إذا به يقول بكل يقين و ضراعة و بأعلى صوته : "لا إله إلا الله ... محمد رسول الله" و حينما سمعت المرأة هذه الصيحة المفاجئة سقط المسدس من يدها و أصابها ذكر شديد لم تجد بعده إلا أن تصرخ في وجه عبد العزيز بأن يخرج بسرعة ، وأخذت تدفعه بيدها إلى الباب و هي في أقصى حالات الذعر و الخوف .

وعبد العزيز لم يريد أكثر من ذلك فأخذ يجري خارج المنزل وهو في أقصى حالات السعادة على ما ثبته الله عليه ومما حماه عنه ^(١)

و هل نام الله؟

تعلق قلب رجل بامرأة بدوية، وقد ذهبت ذات ليلة إلى حاجة لها فتبعها الرجل، فلما خلا بها في البادية، والناس نيام حولهما، راودها عن نفسها، فقالت له: انظر أنام الناس جميعاً؟ ففرح الرجل، وظن أنها قد أجابته إلى ما ابتغى، فقام وطاف حول مضارب الحي، فإذا الناس نيام، فرجع مسروراً وأخبرها بخلو المكان إلا من النيام، فقالت: ما تقول في الله تبارك وتعالى، أنائم في هذه الساعة؟ قال الرجل: إن الله لا ينام ولا تأخذه سنة. فقالت المرأة: إن الذي لم ينم ولا ينام، يرانا، وإن كان الخلق لا يروننا، فذلك أولى أن يخاف، فاتعظ الرجل وتركها وتاب خوفاً من الله تعالى .. ولما مات رئي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال غفر لي لخوفي منه وتوبتي إليه ^(٢)

إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم

^(١) - صور من العفة

^(٢) - صلاح البيوت (ص: ٩٨)

كان بالكوفة فتى جميل الوجه شديد التعب والاجتهاد وكان أحد الزهاد فنزل في جوار قوم من النخ فنظر إلى جارية منهم جميلة فهوئها وهام بها عقله ونزل بها مثل الذي نزل به فأرسل يخطبها من أبيها فأخبره أبوها أنها مسماة لابن عم لها واشتد عليهما ما يقاسيان من ألم الهوى فأرسلت إليه الجارية قد بلغني شدة محبتك لي وقد اشتد بلائي بك لذلك مع وجدي بك فإن شئت زرتك وإن شئت سهلت لك أن تأتيني إلى منزلي فقال للرسول لا واحدة من هاتين الخصلتين: **{قُلْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}** [الزمر: ١٣] أخاف نارا لا يخبو سعيها ولا يخمد لهبها فلما انصرف الرسول إليها فأبلغها ما قال قالت وأراه مع هذا زاهدا يخاف الله تعالى والله ما أحد أحق بهذا من أحد وإن العباد فيه لمشركون ثم انخلعت من الدنيا وألقت علائقها خلف ظهرها ولبست المسوح وجعلت تعبد وهي مع ذلك تذوب وتنحل حبا للفتى وأسفا عليه حتى ماتت شوقا إليه فكان الفتى يأتي قبرها فرآها في منامه وكأنها في أحسن منظر فقال كيف أنت وما لقيت بعدي فقالت:

نعم المحبة يا حبيبي حبكا حب يقود إلى خير وإحسان

فقال على ذلك إلى ما صرت فقالت:

إلى نعيم وعيش لا زوال له في جنة الخلد ملك ليس بالفاني

فقال لها اذكريني هناك فإني لست أنساك فقالت ولا أنا والله أنساك ولقد سألتك ربي مولاي ومولاك فأعني على ذلك بالاجتهاد ثم ولت مدبرة فقلت لها متى أراك قالت ستأتينا عن قريب فلم يعيش الفتى بعد الرؤيا إلا سبع ليال حتى مات رحمهما الله^(١).

جعلتها ذخيرة عند الله

(١) من كتاب "التوابين" لابن قدامة المقدسي (٢٦٦-٢٦٧).

كان لسليمان بن عبد الملك مؤذن في القصر يؤذن بأوقات الصلاة فجاءته جارية له جميلة فقالت : يا مير المؤمنين إن المؤذن إذا مررت به لم يقلع ببصره عني ... و كان سليمان من اشد الناس غيرة ، فكاد أن يفتك بالمؤذن بعقوبة المؤذن ثم قال : للجارية : تزيني و تطيبي و امضي إليه فقوللي : إنه لم يخف علي نظرك إلي و بقلبي أكثر مما بقلك مني ، فإن تك لك حاجة فقد مكتكتك مني ما تريد و هذا أمير المؤمنين غافل ، فان لم تبادر فلن أرجع إليك أبداً ، فمضت إلى المؤذن وقالت له ما قال لها ، فرفع المؤذن بصره إلى السماء و قال : يا جليل أين سترك الجميل ؟.... ثم قال لها : اذهبي ولا ترجعي فعسى الملتقى أن يكون عندا من لا يخيب الظن ،،،،، فرجعت الجارية إلى سليمان فأخبرته الخبر فأرسل إليه فلما دخل قال له الحاجب - أما الخليفة - إن أمير المؤمنين قد رأى أن يهب لك فلانة و يحمل إليك معها خمسين ألف درهم تنفقها فقال المؤذن: هيهات يا أمير المؤمنين: إني والله ذبحت طمعي منها أول لحظة رأيتها و جعلتها ذخيرة لي عند الله و أنا أستحي أن استرجع شيئاً إدخرتها عنده ، فجهد به سليمان أن يأخذ المال و الجارية فب فلم يفعل فكان يعجب منه ولا يزال يحدث أصحابه بحديثه " (١)



عمر وشبيه يوسف عليه السلام

حينما راودت زوجة العزيز سيدنا يوسف عليه السلام وتزينت وتعطرت وهددت ورغبت، لكي يفعل معها الفاحشة صرخ في وجهها وفي وجه الفاحشة معاذ الله معاذ الله أن أهوي في قاع الرذيلة معاذ الله أن أخالف تعاليم ربي ... معاذ الله أن افعل ما تريدون حتى لو سجت و ظلمت.

(١) - مجلة الوعي الإسلامي (عدد : ٢٥٦ ، شعبان ١٤٢٤) ص : ٩٤

صرخة يوسف تلك كانت تتردد بين الحين و الآخر في نفوس العفيفين ، وعفيف قصنا هذا الذي وصلته صرخة يوسف عليه السلام فعمل و تمسك بها هو فتى عاش في القرون الأولى حيث الخير والخيرين، في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان عمر يعجب بهذا الفتى لما يرى من صلاحه وحرصه على الخير، حتى أن عمر كان يتفقده إذا غاب، ويسأل عنه ولكن وكما قال النبي ﷺ "إذا أحب الله عبدا ابتلاه؟"

ابتلي هذا الفتى بحكاية عجيبة، إن دلت إنما تدل على مدى رسوخ الإيـان في قلبه ومدى ثباته على الإيمان، لأنه لم يتربى على الأفلام ولا المسلسلات، وإنما تربى على مراقبة رب الأرض و السموات.

الحكاية: كان هذا الفتى حسن الهيئة جميل المحيا، فعشقتة فتاة من بنات المدينة و كانت تحرص على رؤيته و التمتع بالنظر إليه، و هو لا يلتفت لذلك ولا يهتم و ذات يوم و قد زاد الوله و الهيام في نفس الفتاة، أخذت تفشي ما خبأته منذ زمن إلى نساء كانت تجالسهن، و أخذت تشتكي لهن من صده و عدم اكترائه بها، و إنها تريد رؤيته عن قرب ، و الاستئناس بمجالسته ، فقالت لها امرأة ممن يجلسن عندها : أنا احتال في إدخاله عليك في البيت ، عندها فرحت الفتاة و سرت أيما سرور بهذه المبادرة التي ستحقق حلمها .

خرجت المرأة تحاول اصطياد الفتى و الاحتيال عليه و إدخاله على الفتاة و قعدت في الطريق الذي يمر به و حين رآته أخذت تتظاهر بأنها ضعيفة مسكينة تريد منه المساعدة، في حلب شاتها، و كان أهل ذلك العصر أهل خير يحبون المعروف و فعله كمما قال النبي ﷺ " لا تحقرن من المعروف شيئا " ^(١) فمهما كان الأمر بسيطاً و تافهاً إلا أنهم كانوا

(١) - أحمد (٦٣/٥ ، رقم ٢٠٦٥١) ، وأبو داود (٥٦/٤ ، رقم ٤٠٨٤)

يحرصون عليه، بعكس عصرنا هذا الذي أصبح كثير من الناس "نفسي نفسي و ليهلك الجميع ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وحتى لا نبتعد كثيرا عن حكايتنا نعود لنشاهد الفتى يسير مع تلك المرأة لكي يساعدها فيدخل الدار و حينئذ قالت له المرأة اجلس حتى أتيك بالشاة، و بعد دقائق لم تأت الشاة و إنما جاءت برفقة فتاة كأنها القمر حين رأى الفتى تلك المفاجأة من الحسن و الجمال، و لكنه تذكر أن النظرة الأولى له و الثانية عليه فقفز من مكانه و ابتعد عنها و هي تمسك به و تراوده عن نفسه و هو يصد عنها و يريد الخلاص من هذا المكر و هذه الطامة التي وقع فيها ، وأخذ الفتى يصرخ في وجهها معاذ الله معاذ الله ، و هو يقول اتقي الله يا امرأة ، و المرأة لم تكن تلتفت إلى ما يردده و إنما تريد أن يلبي رغبتها ، و حين رآته لا يفيد فيه الرجاء ولا الود انقلب ذلك الحب إلى غضب و كره و أخذت تصرخ و تولول إلى أن اجتمع الناس فشاهدوا الفتى في بيتها حينها افترت عليه بما يفيد أنه يريد أن ينتهك عرضها ، و قد قفز إلى البيت قاصدا ذلك ، لم يسأل الناس الفتى عن شيء و إنما أخذوا يضربونه و يركلونه ، و بعد أن أصابه ما أصابه أوثقوه بالحبال و ذهبوا به إلى الخليفة الفاروق و حين رآه عمر على تلك الحال غضب منهم لما كان يعرف من صلاح الفتى و تقواه .

وقال عمر: لماذا أوثقتم الفتى؟ ولم كل هذا؟ وتوحدت إجابة القوم على أن الفتى كان يراود فتاة عن نفسها وقد وجدوه في بيتها.

حينها تعجب عمر من ذلك وقال: اللهم لا تخلف ظني به، والتفت إلى الفتى وقال له: أصدقني فأخبره بالقصة على وجهها الحقيقي فقال عمر أتعرف العجوز؟

قال نعم إن رأيته عرفت

استبشر عمر.... وتهللت أساريه حين رأى العجوز فعرفها وقال: هذه يا أمير المؤمنين،
فرع عمر الدرة وقال: أصدقيني، فقصت عليه القصة كما قصها الفتى، فتبسم عمر
الفاروق لأن ظنه لم يخيب، وأخذ يردد الحمد لله الذي جعل فينا شبيه يوسف صلى الله عليه وسلم " (١)

(١) - صور من العفة (ص: ٣٢-٣٨)

الباب الرابع

صور من الثبات على الإيمان

عند حلول المصائب

الفصل الأول: أسباب الثبات على المصائب.

الفصل الثاني: صور من الثبات على الإيمان عند حلول المصائب.

الفصل الأول

أسباب الثبات على المصائب.

اعلم - زادك الله علما - أنه من استخبر العقل والنقل بأن الدنيا دار المصائب والشروور
وليس فيها لذة على الحقيقية إلا وهي مشوبة بالكدر، فما يظن في الدنيا أنه شراب فهو

سراب، وعمارتها وإن حسنت صورتها خراب، والعجب كل العجب ممن يده في سلة
الأفاعي كيف ينكر اللسع، وأعجب منه من يطلب من المطبوع على الضر النفع قال بعض
الأدباء:

طبت على كدر وأنت تريدها صفوا من الأقدار والأكادر

قال بعض السلف: رأيت جمهور الناس ينزعجون لنزول البلاء انزعاجا يزيد عن الحد
كأنهم ما علموا أن الدنيا على ذا وضعت وهل ينتظر الصحيح إلا السقم والكبير إلا الهرم
والموجود سوى العدم؟!

قال الشاعر:

على ذا مضى الناس اجتماع وفرقة

وميت ومولود وبشر وأحزان

ثم قال: ولعمري إن أصل الانزعاج لا ينكر إذ الطبع مجبول على الأمن من حلول المنايا
وإنما ينكر الإفراط فيه والتكليف كمن يخرق ثيابه ويلطم وجهه ويعترض على القدر فإن
هذا لا يرد فائتاً لكنه يدل على خور الجازع ويوجب العقوبة، وسبب ذلك - والله أعلم -
ضعف الإيمان بالآخرة والانشغال عنها بالعاجلة قال الله تعالى: {فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى

عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} [النجم: ٢٩]

فلا هم لهم إلا الدنيا ولا أسف إلا عليها، والعين المتطلعة إلى الآخرة ضعيفة جدا لا تكاد
ترى وقد عمّ البلاء أهل هذا الزمان - نعوذ بالله من الخذلان - فالدنيا لا تخلو من بلية
ولا تصفو من محنة ورزية كما قال القائل كـ

المرء رهن مصائب لا تنقضي حتى يوسد جسمه في رُمسه

فمؤجِّل يلقى الردى في غيره ومعجِّل يلقى الردى في نفسه

فكان لابد على الطريق من وسيلة تثبت على الإيمان عند حلول المصائب و نزول
النكبات و ها هي بين يديك جمعتها لك من بطون الكتب، ولقد ذكر ابن القيم
رحمته الله الأسباب المعينة على الصبر و التي تثبت العبد عندما تحل عليه مصيبة:

أولاً - قال رحمه الله والصبر على البلاء ينشأ من عدة أسباب:

١- شهود جزائها وثوابها: -قلت-: الحيوان الأعجمي الذي لا عقل له يدر به صاحبه
فيصبر على السير على الجبال واقتحام النيران وخوض الصعاب طمعا في قطعة لحم
يحظى بها عند إتمام فقرته يوم العرض، فاصبر أنت يا صاحب العقل على ما هو دون ذلك
محن الزمان طمعا فيما اعده الله للصابرين من جزاء يوافيهم يوم العرض، ولأن شمس
الأجر فوق رؤوسهم الصالحين بازغة لا تغيب ساطعة لا تجبها غمامة شك أو سحابة
هوى، فقد كان كما وصف النبي ﷺ " لأحدهم أشد فرحا بالبلاء من أحدكم بالعطاء
(١)"

فرحا حقيقيا من أعماق القلب من علاماته عدم الشكي، قال مغيرة ذهبت عين الأحنف
فقال " ذهبت أربعين سنة ما شكوتها لأحد "

فيها أخي المسلم - حتى تثبت على طريق الإيمان لنشاهد فجر الأجر " محبة الله " والله
يحب الصبارين "

عظم الثواب {إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر: ١٠]

(١) -أخرجه ابن سعد (٢/٢٠٨) ، وابن ماجه (٢/١٣٣٤) ، رقم ٤٠٢٤ ، قال البوصيري (٤/١٨٨) : هذا إسناد صحيح رجاله ثقات .

وقال رسول الله ﷺ "إن عظم الجزاء مع عظم البلاء" (١)

٣- تكفير السيئات: أخرج الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه " لا يزال البلاء بالمؤمن أو

المؤمنة في جسده وفي ماله وفي ولده حتى يلقي الله عز وجل وما عليه خطيئة" (٢)

قال الفضيل رضي الله عنه: إن الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير.

إلى غير ذلك من ثواب عظيم يدعو المسلم إلى الاستسلام لقضاء الله وقدره والثبات على دينه.

ثانيا: قال ابن القيم رحمه الله شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها.

قلت: كما أشرت في الأحاديث الماضية و منها ما أخرجه البخاري و مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ: ما من مسلم يصيبه أذى، شوكة فما فوقها، إلا كفر الله بها سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها" (٣)

ثالثا: -مما يثبت المسلم على إيمانه عند المصيبة يقول ابن القيم رحمه الله شهود القدر السابق الجاري بها وأنها مقدرة في أم الكتاب قبل أن يخلق فلا بد منها فجزعه لا يزيده إلا بلاء.

قلت: يقول المولى - سبحانه و تعالى - { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } [الحديد: ٢٢]

(١) - الترمذي (٦٠١/٤ ، رقم ٢٣٩٦) وقال: حسن غريب. وابن ماجه (١٣٣٨/٢ ، رقم ٤٠٣١)

(٢) -أخرجه أحمد (٤٥٠/٢ ، رقم ٩٨١٠) ، وهناد (٢٣٨/١ ، رقم ٤٠٢) ، وابن حبان (١٧٦/٧ ، رقم ٢٩١٣) ، والحاكم (٣٥٠/٤ ، رقم ٧٨٧٩) وقال: صحيح على شرط مسلم

(٣) - أخرجه: البخاري ١٤٩/٧ (٥٦٤٨) ، ومسلم ١٤/٨ (٢٥٧١) (٤٥) .

وقال سبحانه: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ} [التغابن: ١١]

قال علقمة: هي مية تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى، قال النبي ﷺ: "واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم يقدروا على ذلك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله لك لم يقدروا على ذلك قضى القضاء وجفت الأقلام وطويت الصحف" (١)

فالمصيبة كير العبد، فإما أن يخرج ذهباً أو خبثاً كما قيل:

سبكناه ونحسبه لجينا فأبدى الكير عن خبث الحديد

فإن لم ينفعه هذا الكير في الدنيا، فين يدب الكير الأعظم، فإذا علم العبد أن إدخاله كير الدنيا ومسبكتها خير له من ذلك الكير والمسبك، وأنه لا بد من أحد الكيرين، فليعلم قدر نعمة الله عليه في الكير العاجل.

الرابع: يقول ابن القيم رحمه الله: شهدوه حق الله عليه في تلك البلوى وواجهه فيها الصبر بلا خلاف بين الأمة أو الصبر والرضا على أحد القولين فهو مأمور بأداء حق الله وعبوديته عليه في تلك البلوى فلا بد له منه وإلا تضاعفت عليه.

ويقول أيضاً: كل أحد لا بد أن يصبر على بعض ما يكره إما اختياراً وإما اضطراراً فالكريم يصبر اختياراً لعلمه بحسن عاقبة الصبر وأنه يحمد عليه ويذم على الجزع وأنه إن لم يصبر لم يرد الجزع عليه فائتاً ولم ينتزع عنه مكروهاً وإن المقدور لا حيلة في دفعه وما لم يقدر لا حيلة في تحصيله فالجزع ضره أقرب من نفعه قال بعض العقلاء العاقل عند نزول

(١) - أخرجه: الترمذي (٢٥١٦)، أحمد ٣٠٧/١، صحيحه الألباني "في ظلال الجنة: ٣١٥، وصحيح الجامع: ٦٨٠٦"

المصيبة يفعل ما يفعله الأحمق بعد شهر كما قيل..... فإذا كان آخر الأمر الصبر والعبد غير محمود فما أحسن به أن يستقبل الأمر في أوله بما يستدبره الأحمق في آخره" (١)

الخامس: شهود ترتبها عليه بذنبه كما قال الله تعالى {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ

أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى: ٣٠] فهذا عام في كل مصيبة دقيقة وجليلة فشغله

شهود هذا السبب بالاستغفار الذي هو أعظم الأسباب في دفع تلك المصيبة قال علي بن أبي طالب ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع بلاء إلا بتوبة

السادس: أن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختارها وقسمها وأن العبودية تقتضي رضاه بما

رضي له به سيده ومولاه فإن لم يوف قدر المقام حقه فهو لضعفه فلينزل إلى مقام الصبر عليها فإن نزل عنه نزل إلى مقام الظلم وتعدى لحق

السابع: أن يعلم أن هذه المصيبة هي داء نافع ساقه إليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به فليصبر على تجرعه ولا يتقيأ بتسخطه وشكواه فيذهب نفعه باطلا.

شيبان الراعي لسفيان: يا سفيان عد منع الله إياك عطاء منه لك، فإنه لم يمنعك بخلاً، إنما منعك لطفاً" (٢)

لا تكره المكروه عند نزوله إن المكاره لم تزل متباينه

كم نعمة لا تستقل بشكرها لله في جنب المكاره كامنه

وقال الحسن لا تكرهوا النقمات الواقعة والبلايا الحادثة فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك

ولرب أمر تؤثره فيه عطبك" (٣)

(١) - عدة الصابرين (ص: ٤٠)

(٢) - صيد الخاطر (ص: ١٠٦)

(٣) - شفاء العليل (ص: ٣٤)

وقال التنوخي رحمه الله: المحن آداب الله عز وجل لخلقه، وتأديب الله بفتح القلوب، والأسماع، والأبصار" (١)

إسحاق إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول الكاتب رحمه الله: يصف الفضل بن سهل، ويذكر تقدمه، وعلمه، وكرمه، وكان مما حدثني به: أنه برىء من علة كان فيها، فجلس للناس، وهنوه بالعافية، فلما فرغ الناس من كلامهم، قال الفضل: إن في العلل لنعماً لا ينبغي للعاقل أن يجهلها: تمحيص للذنوب، وتعرض لثواب الصبر، وإيقاظ من الغفلة، وإذكاء بالنعمة في حال الصحة، واستدعاء للمثوبة، وحض على الصدقة، وفي قضاء الله وقدره بعد، الخيار. (٢)

الثامن: أن يعلم أن في عقبى هذا الدواء من الشفاء والعافية والصحة وزوال الألم ما لم تحصل بدونه فإذا طالعت نفسه كراهة هذا الداء ومرارته فليُنظر إلى عاقبته وحسن تأثيره قال تعالى وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون وقال الله تعالى فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً وفي مثل هذا القائل

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل (٣)

التاسع: أن يعلم أن المصيبة ما جاءت لتهلكه وتقتله وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه فيتبين حينئذ هل يصلح لاستخدامه وجعله من أوليائه وحزبه أم لا فإن ثبت اصطفاؤه واجتباؤه وخلع عليه خلع الإكرام وألبسه ملا بس الفضل وجعل أوليائه وحزبه خدماً له وعونا له وإن انقلب على وجهه ونكص على عقبيه طرد وصفع قفاه وأقصي وتضاعفت

(١) - الفرج بعد الشدة للتنوخي (ص: ٢١)

(٢) - الفرج بعد الشدة للتنوخي (ص: ٢٢)

(٣) - طريق الهجرتين (ص: ٤١٦)

عليه المصيبة وهو لا يشعر في الحال بتضاعفها وزيادتها ولكن سيعلم بعد ذلك بأن المصيبة في حقه صارت مصائب كما يعلم الصابر أن المصيبة في حقه صارت نعمًا عديدة وما بين هاتين المنزلتين المتباينتين إلا صبر ساعة وتشجيع القلب في تلك الساعة والمصيبة لا بد أن تقلع عن هذا وهذا ولكن تقلع عن هذا بأنواع الكرامات والخيرات وعن الآخرة بالحرمان والخذلان لأن ذلك تقدير العزيز العليم وفضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم^(١)

العاشر: أن يعلم أن الله يربي عبده على السراء والضراء والنعمة والبلاء فيستخرج من عبوديته في جميع الأحوال فإن العبد على الحقيقة من قام بعبودية الله على اختلاف الأحوال وأما عبد السراء والعافية الذي يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه فليس من عبيده الذين اختارهم لعبوديته فلا ريب أن الإيمان الذي يثبت على محل الابتلاء والعافية هو الأيمان النافع وقت الحاجة وأما إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبد ويبلغه منازل المؤمنين وإنما يصحبه إيمان يثبت على البلاء والعافية فالابتلاء كير العبد ومحك إيمانه فإذا أن يخرج تبراً أحمر وإما أن يخرج زغلاً محضاً وإما أن يخرج فيه مادتان ذهبية ونحاسية فلا يزال به البلاء حتى يخرج المادة النحاسية من ذهبه ويبقى ذهباً خالصاً فلو علم العبد أن نعمة الله عليه في البلاء ليست بدون نعمة الله عليه في العافية لشغل قلبه بشكره ولسانه اللهم أعني على ذكرك وشكر وحسن عبادتك وكيف لا يشكر من قيض له ما يستخرج خبثه ونحاسه وصيره تبراً خالصاً يصلح لمجاورته والنظر إليه في داره فهذه الأسباب ونحوها تثمر الصبر على البلاء فإن

(١) - طريق الهجرتين (ص: ٤١٦)

قويت أثمرت الرضا والشكر فسنأل الله أن يسترنا بعافيته ولا يفضحنا بابتلائه بمنه وكرمه
(١)"

وهيا أخي المسلم - لنقف مع صور من الثبات على الإيمان أمام المصائب وكيف ثبت أصحابها على الإيمان، وتقبلوا المصائب وكأنها نعم جاءت إليهم من قبل الله تعالى ولله در من قال:

لَا تَكْرَهُ الْمَكْرُوهَ عِنْدَ نُزُولِهِ إِنَّ الْمَكَارِهَ لَمْ تَزَلْ مُتَبَايِنَةً
كَمْ نِعْمَةٌ لَا تَسْتَقِلُّ بِشُكْرِهَا لِلَّهِ فِي جَنْبِ الْمَكَارِهِ كَامِنَةً

ومن قال:

أرى البلاء يا يحيط المرء تحصنه حتى لئن صح ذوب الصخر لم يذوب
أو صح أن قناة الصلب قود وهنت فلا يلين إذا ما صب في اللهب
ما حصحص الحق إلا بعد انسلخت من عمر يوسف أعوام من النصب

(١) - طريق الهجرتين (ص: ١٧٤)

الفصل الثاني

صور من الثبات على الإيمان عند حلول المصائب.

المبحث الأول

ثبات الأنبياء على الإيمان عند حلول المصائب

أولاً: ثبات إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام

يقول المولى سبحانه وتعالى { وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنِّي إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَآبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } [الصفات: ٩٩ - ١١٠]

يقول محمد زين العابدين -: رأى إبراهيم في المنام أنه يذبح ابنه الذي هو بكره ووحده ورؤيا الأنبياء وحي، فسارع الوالد إلى إخبار ابنه إسماعيل عليه السلام بأمر ربه ليكون أهون عليه و ليختبر صبره و جلده، فما كان من الولد البار بأبيه المستسلم لأمر ربه إلا أن قال (يَآبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) إن القلم ليقف حيران أمام هذه العبارة، ماذا يكتب في تصويرها و بلاغتها و تقريبتها من نفوس القارئ !! (يَآبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ) هذا هو الإسلام ... انقياد و استسلام و طاعة و امتثال و تنفيذ، و لكن ليس للملوك و الجبابرة بل الله و حده و لرسله عليهم أفضل الصلاة و التسليم .

(يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ) يا أبت الحليم الأواه المنيب، إن تنفيذ أمر الله أهم من حياتي في هذه الدنيا الفانية وسوف لا تراني ممتعضا ولا مترددا بل سأكون صابرا محتسبا الأجر عند الله

(يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ) فالله جلت قدرته اختارنا لنكون حملة رسالته ونجوم هدى في أرضه وشموسا تبدد كل ظلام ولن نتردد في بذل دماننا وأموالنا وكل ما نملك في سبيل الله.

إن كثير من الناس يستشهدون في ساحات الوغى ويضحون في سبيل الله بالمال والولد، ولكن عمل إبراهيم وإسماعيل لا يشبهه أية تضحية أو استشهاد انظر إلى للوالد الحنون يقول لابنه بكل رقة وشفقة: **(يَا بَنِيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ)** ويرد الولد بكل حب وتقدير: **(يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)** ولو قال لابنه: اذهب في الجهاد في سبيل الله وأرجو أن يشرفني الله بقتلك... ولو قال لابنه: مثل هذا القول لهان الأمر لأن أعداء الله هم الذين سيقتلونه أما هنا فالوالد المؤمن الداعية هو الذي سيقتل ابنه المؤمن الداعية.... سيقتله وهو الذي لم يقارف نبا أو يفعل ما يوجب إقامة الحد عليه!

لقد كانت حياة إسماعيل كلها طاعة وامثال لكل ما يأمره به أبوه، وكان يعلم أن طاعته من طاعة الله، فعندما أخبر زوجته أن تقول له: غير عتبة بابك بيتك، سارع إلى طلاقها، ولم يمنعه من تنفيذ الأمر حبه لها، أو حرصه على مصلحة أولادها، وعندما أمره أن يساعده في بناء الكعبة سارع إلى مساعدته أبيه دون كلل ولا ملل.

ولن ننسى - وكيف ننسى - أن إسماعيل نشأ وترعرع في بيت امرأة كانت تثقتها بالله و استسلامها لأمره أكبر وأعظم من الوصف وقد رأينا فيما مضى له عندما علمت أن الله أمر إبراهيم بتركها مع ابنها في مكان ليس فيه طعام ولا ماء، كان ردها "إذن لن يضيعنا الله

(قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ) ويتنقل إبراهيم الخليل مع ابنه مع الحوار والموافقة قال لأبيه: إلى التنفيذ والتطبيق العملي قال تعالى **(فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ)** أسلما - أي استسلما

الوالد و ابنه - فلم يسأل إبراهيم ربه عن سر هذا الأمر العجيب و كيف يذبح بكره و وحيد
الذي انتظره طويلا و جاءه بعد أن اشتعل رأسه شيئا و بلغ من الكبر عتيا ، ثم يذبحه بعد أن
أصبح شابا و أطاق ما يفعله أبوه من السعي و العمل .

ولم يقل إسماعيل كيف ولماذا تذبحني وأنا الذي لم أعصك طوال حياتي أما يكفيك أنك
ألقيتني في واد ليس فيه ماء ولا زرع وأنا طفل في حضن أمي وتركتنا طعاما للوحوش؟ معاذ
الله أن يقول شيئا من هذا لأنه مؤمن ويعلم أن أباه ينفذ أوامر الله في كل عمل يفعله، ومن
أخص صفات المسلم الرضا، وبدأ إبراهيم تنفيذ أمر الله فصرع ابنه وأوثق قيده مع أنه لم
يتحرك طواعة من نفسه وأمسك السكينة ثم وضعها على حلقه وأمرها فوق عنقه و في
هذه اللحظات سمع الخليل نداء ربه : **{ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا**

كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ }

[الصفات: ١٠٤ - ١٠٧] فالتفت إبراهيم عليه السلام فإذا بكبش أبيض كبير فذبحه و افتدى به
ابنه و فلذة كبده ، وصارت الأضحية سنة من السنن الإسلامية ، و كان النحر بمكة من تمام
حج البيت الحرام : أي يصرف الله عمن أطاعه المكاره و الشدائد ، و يجعل له من أمره

فرجا و مخرجا قال تعالى : **{ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا**

يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا }

[الطلاق: ٢، ٣] وجزاء الله لعباده المحسنين يكون بعد ابتلائه لهم و بعد صبرهم على

هذا الابتلاء و ثباتهم على الحق و بعد هذه الابتلاءات المتتالية لإبراهيم وولده، جعل

الله في ذريتهما النبوة والحكمة " (١)

(١) - منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله (ج ١، ص: ١٩٧-٢٠٠)

ثانيا ثبات نبي الله أيوب ﷺ

يقول ﷺ: { وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَىٰ لِلْعَابِدِينَ } [الأنبياء: ٨٣، ٨٤]

ويقول ﷺ: { وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَىٰ لِلْأُولَى الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ } [ص: ٤١، ٤٤]

يقول ابن كثير - رحمه الله - يذكر تعالى عبده ورسوله أيوب عليه السلام وما كان ابتلاه تعالى به من الضر في جسده وماله وولده حتى لم يبق من جسده مغرز إبرة سليما سوى قلبه ولم يبق له من حال الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله ورسوله فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه نحو من ثماني عشرة سنة. وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا فسلب جميع ذلك حتى آل به الحال إلى أن ألقى على مزبلة من مزابل البلدة هذه المدة بكمالها ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته رضي الله عنها فإنها كانت لا تفارقه صباحا و [لا] مساء إلا بسبب خدمة الناس ثم تعود إليه قريبا. فلما طال المطال واشتد الحال وانتهى القدر المقدور وتم الأجل المقدر تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين فقال: { أَنِي مَسْنِي الضَّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } [الأنبياء: ٨٣] وفي هذه الآية الكريمة قال: رب إني مسني الشيطان بنصب وعذاب، قيل: بنصب في بدني وعذاب في مالي وولدي. فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين وأمره أن يقوم من مقامه وأن يركض الأرض برجله. ففعل

فأنبع الله عينا وأمره أن يغتسل منها فأذهب جميع ما كان في بدنه من الأذى ثم أمره
فضرب الأرض في مكان آخر فأنبع له عينا أخرى وأمره أن يشرب منها فأذهبت ما كان في
باطنه من السوء وتكاملت العافية ظاهرا وباطنا ولهذا قال ﷺ

{اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب}.

قال ابن عباس: ورد عليه ماله وولده عيانا، ومثلهم معهم.
وقال الحسن وقتادة: أحياهم الله بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم
وقيل أجره فيتمن سلف وعوضه عنهم في الدنيا بدلهم، وجمع له شمله بكلهم في الدار
الآخرة" (١)

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال بينا أيوب يغتسل عريانا فخر
عليه رجل جراد من ذهب فجعل أيوب يحثي في ثوبه فقال له ربه يا أيوب ألم أكن أغنيك
عما ترى قال بلى وعزتك ولكن لا غنى بي عن بركتك" (٢)

يقول سيد قطب رحمه الله وقصة ابتلاء أيوب من أروع قصص الابتلاء. والنصوص القرآنية
تشير إلى مجملها دون تفصيل. وهي في هذا الموضع تعرض دعاء أيوب واستجابة الله
للدعاء. لأن السياق سياق رحمة الله بأنبيائه، ورعايته لهم في الابتلاء. سواء كان الابتلاء
بتكذيب قومهم لهم وإيذائهم، كما في قصص إبراهيم ولوط ونوح. أو بالنعمة في قصة
داود وسليمان. أو بالضرر كما في حال أيوب ..

(١) - تفسير ابن كثير- ط دار طيبة (٧/ ٧٤)

(٢) - أخرجه أحمد (٣١٤/٢، رقم ٨١٤٤)، والبخاري (١٠٧/١، رقم ٢٧٥)

وأيوب هنا في دعائه لا يزيد على وصف حاله: **{أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ}** .. ووصف ربه بصفته: **{وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}**. ثم لا يدعو بتغيير حاله، صبرا على بلائه، ولا يقترح شيئا على ربه، تأدبا معه وتوقيرا.

فهو نموذج للعبد الصابر لا يضيق صدره بالبلاء، ولا يتململ من الضر الذي تضرب به الأمثال في جميع الأعصار.

بل إنه ليتحرج أن يطلب إلى ربه رفع البلاء عنه، فيدع الأمر كله إليه، اطمئنانا إلى علمه بالحال وغناه عن السؤال.

وفي اللحظة التي توجه فيها أيوب **عليه السلام** إلى ربه بهذه الثقة وبذلك الأدب كانت الاستجابة، وكانت الرحمة، وكانت نهاية الابتلاء: **{فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ، وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ}** ..

رفع عنه الضر في بدنه فإذا هو معافى صحيح. ورفع عنه الضر في أهله فعوضه عمن فقد منهم، ورزقه مثلهم. وقيل هم أبناؤه فوهب الله له مثليهم. أو أنه وهب له أبناء وأحفاداً. **{رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا}** فكل نعمة فهي رحمة من عند الله ومنة. **{وَذَكِّرْ لِلْعَابِدِينَ}**. تذكرهم بالله وببلائه، ورحمته في البلاء وبعد البلاء. وإن في بلاء أيوب لمثلاً للبشرية كلها وإن في صبر أيوب لعبرة للبشرية كلها. وإنه لأفق للصبر والأدب وحسن العاقبة تتطلع إليه الأبصار.

والإشارة **{لِلْعَابِدِينَ}** بمناسبة البلاء إشارة لها مغزاها. فالعابدون معرضون للابتلاء والبلاء. وتلك تكاليف العبادة وتكاليف العقيدة وتكاليف الإيمان.^(١)

(١) - في ظلال القرآن - موافقا للمطبوع (٤ / ٢٣٩٢)

المبحث الثاني

صور من ثبات الصحابة والتابعين

أولاً: ثبات عمران بن حصين رضي الله عنه

هذا الصحابي من صحابة النبي ﷺ ممن تربى على الصبر، و ممن فقه قول النبي ﷺ :
"من يرد الله به خيراً يصيب منه "

وهكذا كان عمران رضي الله عنه صابراً على البلاء ثلاثين سنة كان عظاماً ممدودة على سريرته،
ولما دخل عليه أخوه مع الإمام الشعبي رأياه ممدوداً على سريرته كأنما شد بالحبال، وما
شد إلا بانتهاك أعصابه وذوبان لحمه ووهن عظمه، فبكى أخوه فقال عمران رضي الله عنه تبك
فإن أحبه إلى الله أحبه إلي "

ثلاثين سنة وهو على سريرته ما أصابه الضجر ولا السخط بل رضي كل الرضا وثبت على
إيمانه أمام ذلك المرض .

وقفه ثبات يقول رسول الله ﷺ " إن الله إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضا
ومن سخط فله السخط "

وقال ﷺ : ((أشد الناس بلاءً: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل يبتلي الرجل على حسب دينه،
فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه وإن كان دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء
بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة))^(١)

(١) - أخرجه أحمد (١٨٥/١)، والترمذي في الزهد (٢٣٩٨)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٢) وغيرهم، وقال الترمذي: "حديث حسن

صحيح"، وصححه ابن حبان (٢٩٠٠)

فكلما اشتد البلاء على العبد دل ذلك على قوة إيمانه وثباته أمام البلايا والرزايا؟

ثانياً: ثبات عبد الله بن عباس رضي الله عنه

عبد الله بن عباس هو حبر الأمة وترجمان القرآن، تربى في أكناف محمد صلى الله عليه وسلم فعن عكرمة عن ابن عباس قال: ضمنني إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "اللهم علمه الحكمة"

وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم "اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل"

نُعت له ابنته فاسترجع وقال في ثبات المؤمنين الراضين الصابرين: عورة سترها الله ومؤونة كفهاها الله، وأجر قد ساقه الله ثم نزل فصلى ركعتين ثم قال قد صنعنا ما أمرنا به الله تعالى، قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ

الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٥٣]

وذكر ابن الجوزي عن سماك أن ابن عباس سقط في عينيه الماء فذهب بصره، فأتاه هؤلاء الذين ينقبون العيون ويسيلون الماء، فقالوا: خل بيننا وبين عينيك نسيل ماءهما، ولكنك تمكث خمسة أيام لا تصلي (يعني قائماً).

قال: لا والله ولا ركعة واحدة، إني حدثت أنه من ترك صلاة واحدة متعمداً لقي الله (عز وجل) وهو عليه غضبان.^(١)

ولما أصيب في بصره أنشأ يقول:

إن يذهب الله عن عيني نورهما ففي لساني وقلبي للهدى نور

عقلي ذكي وقولي غير ذي خطل وفي فمي صارم كالسيف مأثور

(١) - صفة الصفوة (١/ ٢٩٨)

وقفه ثبات

مرض أبو بكر رضي الله عنه فعادوه، فقالوا: ألا ندعو لك الطبيب؟ فقال: قد رأيي الطبيب. قالوا: فأني شيء قال لك؟ قال: إني فعّال لما أريد.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وجدنا خيرَ عيشنا بالصبر.

وقال أيضاً: أفضل عيشٍ أدركناه بالصبر، ولو أنّ الصبر كان من الرجال كان كريماً.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قُطع الرأسُ بار الجسم، ثم رَفَعَ صوته فقال: إنه لا إيمان لمن لا صبر له. وقال: الصبر مطيّة لا تكبو.

وقال الحسن: الصبر كنزٌ من كنوز الخير، لا يعطيه الله إلا لعبده الكريم عنده.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما أنعم الله على عبدٍ نعمةً، فانتزعها منه، فعاضه مكانها الصبر، إلا كان ما عوّضه خيراً مما انتزعه.

وقال ميمون بن مهران: ما نال أحد شيئاً من ختم الخير فيما دونه إلا الصبر.

وقال سليمان بن القاسم: كلُّ عمل يُعرف ثوابه إلا الصبر، قال تعالى: **{إِنَّمَا يُوفَّى**

الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} قال: كالمال المنهمر.^(١)

ثالثاً: ثبات معاذ بن جبل - رضي الله عنه

وأخرجه ابن خزيمة وابن عساكر عن عبد الرحمن بن غنم قال: وقع الطاعون بالشام فقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: إن هذا الطاعون رجس ففروا منه في الأودية والشعاب، فبلغ

^(١) - لا تحزن (ص: ٧٨)

ذلك شرّ حبيل بن حسنة رضي الله عنه، فغضب وقال: كذب عمرو بن العاص، لقد صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمرو أضلّ من جمل أهله، إنّ هذا الطاعون دعوة نبيكم، ورحمة ربكم، ووفاة الصالحين قبلكم. فبلغ ذلك معاذاً رضي الله عنه فقال: اللهم اجعل نصيب آل معاذ الأوفر، فماتت ابنتاه، وطعن ابنه عبد الرحمن، فقال: الحقّ من ربك فلا تكوننّ من الممترين، فقال: ستجدني إن شاء الله من الصابرين. وطعن معاذ في ظهر كفه، فجعل يقول: هي أحبُّ إليّ من حمر النعم، ورأى رجلاً يبكي عنده فقال: ما يبكيك؟ قال: على العلم الذي كنت أصيبه منك، قال: فلا تبك فإن إبراهيم كان في الأرض وليس بها عالم، فاتاه الله علماً، فإذا مت فاطلب العلم عند أربعة: عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن سلام، وسلم ان، وأبي الدرداء رضي الله عنهم.^(١)

وقفة ثبات:

يقول ابن القيم - رحمه الله - الصبر إذا قام به العبد كما ينبغي انقلبت المحنة في حقه منحة واستحالت البلية عطية وصار المكروه محبوباً فإن الله سبحانه وتعالى لم يبتله ليهلكه وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته فإن لله تعالى على العبد عبودية الضراء وله عبودية عليه فيما يكره كما له عبودية فيما يحب وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون والشأن في إعطاء العبودية في المكاره ففيه تفاوت مراتب العباد وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى^(٢)

رابعاً: ثبات امرأة من أهل الجنة

(١) - حياة الصحابة (٣/ ٣٦٧)

(٢) - الوابل الصيب (ص: ١١) لا تحزن (ص: ٢-٣)

عن عطاء بن أبي رباح، قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى. قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ، فقلت: إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي. قال: "إن شئت، صبرت؛ ولك الجنة. وإن شئت، دعوت الله أن يعافيك" فقالت: أصبر. فقالت: إني أتكشف: فادع الله أن لا أتكشف. فدعا لها. ^(١)

خامسا: ثبات إمرة من الأنصار

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما كان يوم أحد حاص أهل المدينة حيصة وقالوا: قتل محمد، حتى كثرت الصوارخ في ناحية المدينة فخرجت امرأة من الأنصار محرمة فاستقبلت بأبيها وابنها وزوجها وأخيها لا أدري أيهم استقبلت به أولاً، فلما مرت على أحدهم قالت: من هذا؟ قالوا: أبوك أخوك زوجك ابنك، تقول: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون: أمامك، حتى دَفَعَتْ إلى رسول الله ﷺ فأخذت بناحية ثوبه، ثم قالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا أبالي إذا سلمت مَنْ عَطَب ^(٢)

سادسا: ثبات أبي ذر رضي الله عنه

وكان أبو ذر - رضي الله عنه - لا يعيش له ولد، فقيل له: "إنك امرؤ لا يبقى لك ولد. فقال: الحمد لله، كل ذلك في كتاب، الحمد لله الذي يأخذهم في دار الفناء، ويدخرهم في دار البقاء" أو كما قال رضي الله عنه وأرضاه.

^(١) - أخرجه : البخاري ١٥٠/٧ و ١٥١ (٥٦٥٢) ، ومسلم ١٦/٨ (٢٥٧٦) .

^(٢) - صفة الصفوة (١/ ٢٨٧)



سابعاً: ثبات عبد الله بن عامر رضي الله عنه

كان لعبد الله بن عامر سبعة أبناء فماتوا في يوم واحد فهل شق الجيوب؟ وهل دعا بدعوى الجاهلية؟

كلا إنه الإيمان الذي رسخ في قلوب المؤمنين
قال - رحمه الله: الحمد لله ، إني مسلم مُسلم ...

يمضي الصغير إذا انقضت أيامه إثر الكبير ، ويولد المولود

والناس في قسم المنية بينهم كالزرع منه قائمٌ وحصيدٌ

حاله - رحمه الله - كحال القائل:

ما قد قُضى يا نفسي فاصطبري له ولكِ الأمان من الذي لم يقدر

ثم اعلمي أن المقدّر كائن حتماً عليكِ صبرتِ أم لم تصبري^(١)

وقفة ثبات:

يقول ابن الجوزي رحمه الله ليس في الوجود شيء أصعب من الصبر إما على المحبوب أو على المكروهات.

وخصوصاً إذا امتد الزمان أو وقع اليأس من الفرج.

^(١) - محاضرة (كشف الكربة عند فقد الأحبة) للشيخ علي القرني

وتلك المدة تحتاج إلى زاد يقطع به سفرها، والزاد من أجناس.

فمنه: تلمح مقدار البلاء وقد يمكن أن يكون أكثر.

ومنه: أنه في حال فوقها أعظم منها مثل أن يتلي بفقد ولد وعنده أعز منه.

ومن ذلك: رجاء العوض في الدنيا.

ومنه: تلمح الأجر في الآخرة.

ومنه: التلذذ بتصوير المدح والثناء من الخلف فيما يمدحون عليه والأجر من الحق عز وجل.

ومن: ذلك بأن الجزع لا يفي بل يفضح صاحبه إلى غير ذلك من الأشياء التي يقدحها العقل والفكر.

فليس في طريق الصبر نفقة سواها، فينبغي للصابر أن يشغل بها نفسه ويقطع بها ساعات ابتلائه وقد صبح المنزل.^(١)

ثامنا: ثبات امرأة من أهل البادية

قال الأصمعي: خرجت أنا وصديق لي إلى البادية، فضللنا الطريق؛ فإذا نحن بخيمة عن يمين الطريق، فقصدنا نحوها، فسلمنا؛ فإذا عجوز ترد السلام، ثم قالت: من أنتم؟ قلنا: قوم ضللنا الطريق، وأنسنا بكم، وقوم جياع.

قالت: ولّوا وجوهكم حتى أقضي من حقكم ما أنتم له أهل.

^(١) -صيد الخاطر (ص: ١٤٢)

ففعلنا، وجلسنا على فراش أَلَقْتَهُ لَنَا، وإذا ببعير مقبل، عليه راكب، وإذا بها تقول: أسأل الله بركة المقبل، أما البعير فبعير ولدي، وأما راكبه فليس بولدي.
جاء الراكب، وقال: يا أم عقيل! السلام عليك أعظم الله أجرك في عقيل، فقالت: ويحك! أوقد مات عقيل؟ قال: نعم.

قالت: وما سبب موته؟ قال: ازدحمت عليه الإبل فرمت به في البئر، فقالت: انزل، ودفعت له كبشاً، ونحن مدهوشون، فذبحه وأصلحه، وقرب إلينا الطعام، فجعلنا نتعجب من صبرها؛ فلما فرغنا قالت: هل فيكم أحد يحسن من كتاب الله - عز وجل - شيئاً فقلنا: نعم.

قالت: فاقروا عليّ آيات أتعزّي بها عن ابني، قال: قلت: { وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * } [البقرة: ١٥٥-١٥٧] قالت: آله إنها لفي كتاب الله؟ قلت: والله إنها لفي كتاب الله.

قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، صبراً جميلاً، وعند الله أحسب عقيلًا.
اللهم إني فعلت ما أمرتني به؛ فانجزني ما وعدتني، ولو بقي أحد لأحد ل بقي محمد صلى الله عليه وسلم لأمته.

قال: فخرجنا، ونحن نقول: ما أكمل منها ^(١)
قال المدائني: رأيت بالبادية امرأة لم أرى جلدا أنضر منها ولا أحسن وجهها منها فقلنت: تالله إن فعل هذا بك الاعتدال والسرور.

^(١) - دروس للشيخ علي القرني (٣٤/ ٦، بترقيم الشاملة آليا

فقالت: كلا والله إني لبدع أحزان وخلف هموم وسأخبرك: كان لي زوج وكان لي منه
إبنان فذبح أبوهما شاة في يوم الأضحى والصبيان يلعبان فقال الأكبر للأصغر: أتريد أن
أريك كيف ذبح أبي الشاة قال: نعم فذبحه فلما نظر إلى الدم جزع ففزع نحو الجبل فأكله
الذئب فخرج أبوه في طلبه فتاه أبوه فمات عطشاً فأفردني الدهر فقلت لها وكيف أنت
والصبر؟ فقالت: لو دام لي لدمت له ولكنه كان جرحاً فاندمل^(١)

تاسعا: ثبات أعرابية

قال الأصمعي: حجت أعرابية ومعها ابن لها فأصيبت به. فلما دفن قامت على قبره وهي
موجعة فقالت: والله يا بني لقد غذوتك رضيعاً. وفقدتك سريعاً. وكأنه لم يكن بين
الحالين مدة ألتذ بعيشك فيها. فأصبحت بعد النضارة والغضارة ورونق الحياة والتنسم في
طيب روائحها تحت أطباق الثرى جسداً هامداً ورفاً سحيقاً وصعيداً جرزاً. أي بني قد
سحبت الدنيا عليك أذيال الفنا وأسكنتك دار البلى. ورمتني بعدك نكبة الردى. أي بني
لقد أسفر لي عن وجه الدنيا صباح داح ظلامه. (ثم قالت): أي رب منك العدل ومن
خلقت الجور. وهبته لي قرّة عين فلم تمتعني به كثيراً بل سلبتني وشيكاً. ثم أمرتني بالصبر
ووعدتني عليه بالأجر فصدقت وعدك ورضيت قضاءك. فرحم الله من ترحم على من
استودعته الردم ووسدته الثرى. اللهم ارحم غربته وأنس وحشته واستر سوءته يوم
تنكشف السوءات. (فلما أرادت الرجوع إلى أهلها وقفت على قبره فقالت): أي بني إني
قد تزودت لسفري فليت شعري ما زادك لبعد طريقك ويوم معادك.

اللهم إني أسألك له الرضا برضاي منه. قم قالت: استودعتك من استودعنيك في أحشائي
جنيئاً. وأثكل الوالدات ما أمض حرارة قلوبهن وأقلق مضاجعهن وأطول ليلهن وأقصر

(١) - الكبائر - الذهبي (ص: ١٨٣)

نهارهن وأقل أنسهن وأشد وحشتهن. وأبعدهن من السرور وأقربهن من الأحزان. فلم
تزل تقول هذا ونحوه حتى أبكت كل من سمعها. وحمدت الله وصلت ركعات عند قبره
وانطلقت. (١)

وقفة ثبات:

يقول احمد فريد - حفظه الله - "من اعظم ما يستتلى به من أصيب بمصيبة فصبر لها
واسترجع ما وعده الله عز وجل من الأجر والثواب حيث قال تعالى { وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ
(١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ
صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ } [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧]

و المصيبة كما قال القرطبي رحمه الله: المصيبة هي كل ما يؤذي المؤمن ويصيبه، وقد
جعل الله عز وجل كلمات الاسترجاع إنا لله وإنا إليه راجعون جعلها ملجأً وملاذاً لذوي
المصائب وعصمة للممتحنين من الشيطان لئلا يتسلط على المصاب فيوسوس له
بالأفكار الرديئة، قال عمر بن الخطاب : (نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين، ويعني
بالعدلين: الصلاة والرحمة وبالعلاوة الهدى)، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة
وأولئك هم المهتدون ، وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله يقول:
((ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في
مصيبتى واخلف لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها)) فلما مات أبو سلمة قلت أي
المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ثم إنني قتلها فأخلف الله لي
رسوله ﷺ. (٢)

(١) - مجاني الأدب في حدائق العرب (٤ / ٤١)

(٢) - مسلم ٦٣٢/٢ و ٦٣٣.

ومن بركة الحمد والاسترجاع في الآخرة ما رواه أبو سنان قال: دفنت ابني سنانا وأبو طلحة الخولاني جالس على شفير القبر فلما فرغت قال: قال رسول الله ﷺ قال: "إذا مات ولد العبد، قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟

فيقولون:

نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟

فيقولون: نعم.

فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسمّوه بيت الحمد" (١)

وَقَفْتُ أَعْرَابِيَّةً عَلَى قَبْرِ أَبِيهَا فَقَالَتْ: يَا أَبَتِ، إِنَّ فِي اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ فَقْدِكَ عَوَضًا، وَفِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مُصِيبَتِكَ أَسْوَةٌ، ثُمَّ قَالَتْ: اللَّهُمَّ، نَزِلْ بِكَ عَبْدُكَ مُتَّقِرًا مِنَ الزَّادِ، مَخْشُوشًا الْمِهَادِ، غَنِيًّا عَمَّا فِي أَيْدِي الْعِبَادِ، فَقِيرًا إِلَى مَا فِي يَدَيْكَ يَا جَوَادُ، وَأَنْتَ أَيُّ رَبِّ خَيْرٌ مِنْ نَزَلَ بِهِ الْمُؤْمِلُونَ، وَأُسْتَغْنَى بِفَضْلِهِ الْمُقِلُّونَ، وَوَلَجَ فِي سَعَةِ رَحْمَتِهِ الْمُذْنِبُونَ. اللَّهُمَّ فَلْيَكُنْ قَرَى عَبْدِكَ مِنْكَ رَحْمَتِكَ، وَمِهَادُهُ جَنَّتِكَ، ثُمَّ انصرفت. (٢)

عاشرا: يزيد بن هارون

مروا بيزيد بن هارون عليه رحمة الله وقد عمي، وكانت له عينان جميلتان قل أن توجد عند أحد في عصره مثل تلك العينين، فقالوا له وقد عمي: ما فعلت العينان الجميلتان يا بن هارون؟ فقال: ذهب بهما بكاء الأسحار، وإني لأحتسبهما عند الله الواحد الغفار. (٣)

(١) - رواه الترمذي في الجنايز (١٠٢١) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٠٨) وصحيح الجامع (٧٩٥).

(٢) - العقد الفريد (١/ ٣٤٦)

(٣) - مواظ ابن الجوزي (ص: ٢) محاضرات علي القرني (٧/ ٢٨)

فطب نفسا إذا حكم القضاء

ولا تجزع لحادثة الليالي فما لحوادث الدنيا بقاء

ومن نزلت بساحته المنيا فلا أرض تقيه ولا سماء^(١)

وقفة ثبات:

يقول الشيخ احمد فريد - حفظه الله - "ومما يتسلى به المصاب أن يعلم أن المصائب تتفاوت، فمهما كانت المصيبة بعيدة عن الدين تسلي بذلك لأن المصيبة في الدين من أعظم المصائب، ومصائب الدنيا كذلك تتفاوت فمهما حصلت الأدنى تسلي بذلك " قال السفاريني -رحمه الله- المصائب تتفاوت، فأعظمها المصيبة في الدين، نعوذ بالله من ذلك، فإنها أعظم من كل مصيبة يصاب بها الإنسان.

ويؤيد ذلك قوله ﷺ "المسلوب من سلب دينه"^(٢) فإذا رأيت إنسانا لا يبالي بما أصابه في دينه من ارتكاب الذنوب والخطايا وفوات الجمعة والجماعة وأوقات الطاعات فاعلم أنه ميت لا يحس بالم مصيبة، فإنك لا تسمع الموتى.

ثم بعد المصيبة في الدين المصيبة في النفس، ثم في الأهل وهي مقارنة المصيبة في النفس، ثم المصيبة في المال، وهذه كالتى قبلها تتفاوت بحسب فخامة المصاب فيه وحقارته، فأعظمها أنفسها إلى أن تصل إلى شسع النعل والشوكة فإنهما في غاية الحقارة، فإن حر المصيبة تنال من القلب بقدر ما فقد وتألم، وشسع النعل في غاية الخسة.

فنبه المصطفى على أعلى المصائب بقوله "المسلوب من سلب دينه"^(٣)

(١) - هكذا علمتني الحياة للشيخ علي القرني

(٢) - لا أصل له

(٣) - غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٢/ ٣٣٤)

و يقرب من هذا قوله ﷺ " يا أيها الناس أيما أحدٍ من الناس أو من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعزَّ بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري، فإن أحدًا من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتِي" (١)

قال في تسلية المصاب: من أعظم المصائب في الدين موت النبي ﷺ لأن المصيبة به أعظم من كل مصيبة يصاب بها المسلم لأن بموته ﷺ انقطع الوحي من السماء إلى يوم القيامة و انقطعة النبوات و كان موته أول ظهور الشر و الفساد بارتداد العرب عن الدين فهو أول انقطاع عرى الدين و نقصانه و فيها غاية التسلية عن كل مصيبة تصيب العبد و غير ذلك من الأمور التي لا أحصيها

قال أنس بن مالك . رضي الله عنه: ما نفضنا أيدينا من التراب من قبر رسول الله ﷺ حتى أنكرنا قلوبنا

قال أبو العتاهية مسليا بعض إخوانه في ولد له اسمه محمد:

اصبر لكل مصيبة وتجلد واعلم بأن المرء غير مخلد
أو ما ترى أن المصائب جمّة وترى المنية للعباد بمرصد
من لم يصب ممن ترى بمصيبة هذا سبيل لست عنه بأوحد
فإذا ذكرت محمدا ومصابه فاجعل مصابك بالنبي محمد

(١) - ابن ماجه، واللفظ له، في كتاب الجنائز، باب ما جاء في الصبر على المصيبة، برقم ١٥٩٩، والدارمي، ٤٠/١، وصححه الألباني في

سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ١١٠٦

قال شريح: (إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عز وجل أربع مرات أحمدته إذا لم تكن أعظم مما هي، وأحمدته إذ رزقني الصبر عليها، وأحمدته إذ وفقني للإسترجاع لما أرجو منه من الثواب، وأحمدته إذا لم يجعلها في ديني).^(١)

^(١) تسليية المصاب (ص: ٣٢-٣٣)

الباب الخامس

الثبات عند الممات

الفصل لأول – وسائل الثبات عند الممات

الفصل الثاني: صور من الثبات عند الممات

الفصل لأول

وسائل الثبات عند الممات

اعلم – علمني الله وإياك – أن أمامك عقبة كئود لا يجتازها إلا من ثبت على الصراط المستقيم وقدم بين يديه الزاد لسفره وتحصن بحصون التقوى، وكان شعاره على الطريق " يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك " (١)

يقول ربنا سبحانه و تعالى {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي

الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ} [إبراهيم: ٢٧]

يقول القرطبي – رحمه الله – " وإذا كانت الهداية إلى الله مصروفة و الاستقامة على مشيته موقوفة و العاقبة مغيبة و الإرادة غير مغالبة فلا تعجب بإيمانك و عملك و صلاتك و صومك و جميع قربك فإن ذلك و إن كان من كسبك فإنه من خلق ربك و فضله الدار

(١) – الترمذي (٣٥٢٢) واللفظ له وقال: حديث حسن، والحاكم (١/ ٥٢٥)

عليك و خيرهما افتخرت بذلك كنت كالمفتخر بمتاع غيره و ربما سلب عنك فعاد قلبك من الخير أخلى من جوف البعير فكم من روضة أمست و زهرها يانع عميم فأصبحت و زهرها يابس هشيم إذ هبت عليها الريح العقيم كذلك العبد يمسي و قلبه بطاعة الله مشرق سليم فيصبح و هو بمعصية مظلم سقيم ذلك فعل العزيز الحكيم الخلاق العليم ^(١)

(عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رجلا من أعظم المسلمين غناء عن المسلمين في غزوة غزاها مع النبي صلى الله عليه وسلم، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا"، فاتبعه رجل من القوم وهو على تلك الحال من أشد الناس على المشركين حتى جرح فاستعجل الموت، فجعل ذبابة سيفه بين ثدييه حتى خرج من بين كتفيه، فأقبل الرجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم مسرعا فقال: أشهد أنك رسول الله، فقال: "وما ذاك؟". قال: قلت لفلان:

"من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إليه"، وكان من أعظمنا غناء عن المسلمين، فعرفت أنه لا يموت على ذلك فلما جرح استعجل الموت، فقتل نفسه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم عند ذلك: "إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم" ^(٢)

لذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثّر من هذا الدعاء "اللهم يا ولي الإسلام وأهله مسكني بالإسلام حتى ألقاك عليه" ^(٣)

^(١) - التذكرة للقرطبي (ص: ٤٤)

^(٢) - البخاري- الفتح ١١ (٦٦٠٧) واللفظ له. ومسلم (١١٢) .

^(٣) - صحيح: رواه النسائي والحاكم عن عمار بن ياسر، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" رقم (١٣٠١) .

"عياذ بالله من الحور بعد الكور ومن الضلالة بعد الهدى والمعصية بعد التقى كم من وجوه خاشعة وقع على قصص أعمالها {عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ، تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً} [الغاشية: ٣، ٤] كم من شارف مركبه ساحل النجاة فلما هم أن يرقى لعب به موج الهوى فغرق الخلق كلهم تحت هذا الخطر قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء قال بعضهم: ما العجب ممن هلك كيف هلك إنما العجب ممن نجا كيف نجا. (١)

قال أبو محمد عبد الحق: اعلم أن سوء الخاتمة - أعاذنا الله منها - تكون لمن استقام ظاهره وصلاح باطنه، ما سمع بهذا ولا علم به. الحمد لله. وإنما تكون لمن كان له فساد في العقل، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم.

فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، فيصطلمه الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله، ثم العياذ بالله، أو يكون ممن كان مستقيماً، ثم يتغير عن حاله ويخرج عن سننه، ويأخذ في طريقه، فيكون ذلك سبباً لسوء خاتمه وشؤم عاقبته، كإبليس الذي عبد الله فيما يروى ثمانين ألف سنة، وبلغام بن باعوراء الذي آتاه الله آياته فانسلك منها بخلوده إلى الأرض، واتباع هواه، وبرصيصا العابد الذي قال الله في حقه ({كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ}).

ويروى: أنه كان بمصر رجل ملتزم مسجداً للأذان والصلاة، وعليه بهاء العبادة وأنوار الطاعة، فرقي يوماً المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني ذمي، فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار، فافتتن بها وترك الأذان، ونزل إليها ودخل الدار فقالت له: ما شأنك ما تريد؟ فقال: أنت أريد.

قالت: لماذا؟ قال لها: قد سلبت لبي وأخذت بمجامع قلبي.

(١) - لطائف المعارف لابن رجب (ص: ٣٥٥-٣٥٦)

قالت: لا أجيبك إلى ريبة.

قال لها: أتزوجك.

قالت له: أنت مسلم وأنا نصرانية وأبي لا يزوجني منك قال لها: أتنصر.

قالت: إن فعلت أفعل.

فتنصر ليتزوجها، وأقام معها في الدار.

فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقي إلى سطح كان في الدار فسقط منه فمات، فلا هو بدينه ولا هو بها.

فنعوذ بالله ثم نعوذ بالله من سوء العاقبة وسوء الخاتمة. ^(١)

وسائل الثبات:

أولاً: الاستقامة

وهي من أعظم الأسباب والوسائل للثبات عند الممات يقول سبحانه وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفَامُوا تَنْزِّلْ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَلَّا نَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ} [فصلت: ٣٠، ٣١]

وقال سبحانه وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفَامُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ} [الأحقاف: ١٣]

^(١) – التذكرة للقرطبي (ص: ٤٢)

والاستقامة كلمة جامعة لكل ما أمر الله به و كل ما نهى عنه، و اختلف العلماء في معناها فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : " ألا تشرك بالله شيئاً :

و فسرها عمر رضي الله عنه : بأنها الاستقامة على الأمر و النهي و ألا تروغ روغان الثعالب ،

و فسرها ابن تيمية رحمته الله : بالمحبة و العبودية لا يلتفتون عنها يمنة و لا يسرة، و الله

سبحانه قد بشر أهل الاستقامة بالروح و الرياح و رب راض غير غضبان، فالملائكة

تنزل عليهم لتثبتهم على الإيمان و معهم التحف الربانية _ البشارة بالجنة و النجاة من

النار - و ها هم أهل الاستقامة على فراش الموت لما احتضر أبو سفيان بن الحارث بن

عبد المطلب رضي الله عنه قال : لا تبكوا علي فإني لم أنتطف بخطيئة منذ أسلمت .

والعماد المقدسي قال عنه ابن قامة: من عمري اعرفه أن ما عرفت أنه عصي الله معصية،

فلما جاءه الموت جعل يقول: يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث، واستقبل

القبلة وتشهد.

" أما أهل الكفر والفجور فإنهم يحرمون الثبات في أشد الأوقات كربة فلا يستطيعون

التلفظ بالشهادة عند الموت، وهذا من علامات سوء الخاتمة كما قيل لرجل عند موته: قل

لا إله إلا الله فجعل يحرك رأسه يميناً وشمالاً يرفض قولها.

وآخر يقول عند موته: " هذه قطعة جيدة، هذه مشتراها رخيص "، وثالث يذكر أسماء قطع

الشطرنج. ورابع يدندن بألحان أو كلمات أغنية، أو ذكر معشوق.

ذلك لأن مثل هذه الأمور أشغلتهم عن ذكر الله في الدنيا.

وقد يرى من هؤلاء سواد وجه أو نتن رائحة، أو صرف عن القبلة عند خروج أرواحهم،

ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أما أهل الصلاح والسنة فإن الله يوفقهم للثبات عند الممات، فينطقون بالشهادتين ^(١).

ثانيا تقوى الله

يقول الله سبحانه و تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ } [آل عمران: ١٠٢]

قال شيخ احمد فريد-حفظه الله- وعد-الله عز وجل - أهل التقوى بالمخرج والنجاة من كل ضيق فقال عز وجل: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} [الطلاق: ٢]

ولا شك أن العبد في حال السكرات في شدة و حرج والمخرج والنجاة في الذكر والطاعة والنطق بكلمة التوحيد كما وعد الله - عز وجل - المتقين اليسر بعد المشقة فقال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا} [الطلاق: ٤]

ويقول الشاعر:

تزوّد من التقوى فإنك لا تدري إذا جنّ ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكاً وقد نسجت أكفائه وهو لا يدري
وكم من عروس زينوها لزوجها وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر
وكم من صحيح مات من غير علّة وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

ثالثا حسن الظن بالله تعالى

فليجعل المريض حسن الظن بالله شعاره ودثاره وليقو نفس رجائه فإن الخوف سوط تساق به النفس إلى الجد وما بقي في الناقة موضع لشوط إنما حسن الظن جدا

^(١) - وسائل الثبات لمحمد المنجد (ص: ١٦)

عن أنس أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال له كيف تجدك قال أرجو الله وأخاف ذنوبي فقال رسول الله ﷺ لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف

عن حيّان أبي النضر، قال: دخلت مع واثلة بن الأسقع على أبي الأسود الجرشي في مرضه الذي مات فيه، فسلم عليه وجلس. قال: فأخذ أبو الأسود يمين واثلة، فمسح بها على عينيه ووجهه لبيعته بها رسول الله ﷺ فقال له واثلة: واحدة أسألك عنها، قال: وما هي؟ قال: كيف ظنك برّبك؟ قال: فقال أبو الأسود، وأشار برأسه، أي حسن، قال واثلة: أبشر إنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "قال الله -عزّ وجلّ-: أنا عند ظنّ عبدي بي فليظنّ بي ما شاء" (١)

عن المعتمر بن سليمان قال: قال لي أبي حين حضرته الوفاة يا معتمر حدثني بالرخص لعلني ألقى الله عز وجل وأنا حسن الظن به" (٢)

عن عطاء بن السائب قال: "دخلنا على أبي عبد الرحمن نعوذ فذهب بعض القوم يرجيه فقال إنني لأرجو ربي وقد صمت له ثمانين رمضان" (٣)

رابعاً: الصدق مع الله تعالى

فإن الصدق يهدي إلى البر، و الصدق ينجي صاحبه، الصدق منجاة، ومتى على علام الغيوب من عبده صدق النية و صدق السريرة ثبته -سبحانه و تعالى- في دنياه وآخرته، و

(١) -أحمد (٤٩١ / ٣)، والدارمي (٢٧٣١)، والحاكم (٢٤٠ / ٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الألباني في صحيح الجامع:

صحيح (٤٣١٦).

(٢) -الثبات عند المات (ص: ٦٩)

(٣) - حسن الظن بالله (ص: ١١٣)

لقد أمرنا سبحانه أن نكون من جملة الصادقين يقول - سبحانه وتعالى - : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: ١١٩]

والصدق أساس بناء الدين وعمود فسطاط اليقين، ومن لم يكن معه الصدق فو من المنقطعين الهالكين.

ومن كان معه الصدق أوصله إلى حضرة ذي الجلال، وكان سببا في حسن الخاتمة وطيب المآل.

قال أنس: غاب عمي أنس بن النضر - سُمِّيَتْ به - لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر، فشق عليه وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، لئن أراني الله مشهدا فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها. فشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد.

فاستقبل سعد بن معاذ، فقال له أنس: يا أبا عمرو، أين واهأ لريح الجنة أجده دون أحد. قال: فقاتلهم حتى قتل: فوُجِدَ في جسده بضْعُ وثمانون من ضربة وطعنة ورمية فقالت أخته - عمتي الربيع ابنة النضر - فما عرفت أخي إلا ببنانه .

قال: فنزلت هذه الآية: {مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ} فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه - رضى الله عنهم " (١)

(١) - صحيح البخاري (٢٨٠٥)

عن الحارث الغنوي قال: آلى ربي بن حراش أن لا يضحك حتى يعلم في الجنة هو أو في النار؟ قال الحارث الغنوي: فلقد أخبرني غاسله أنه لم يزل مبتسماً على سريره ونحن نغسله حتى فرغنا من غسله. - رحمه الله تعالى^(١)

خامساً: التوبة الصادقة

ومن وسائل الثبات عند الممات التوبة الصادقة التي نبعت من مصدر الإيمان والخوف من الله تعالى، التوبة التي اكتملت فيها شروطها، لا توبة الكذابين التي لا تتجاوز اللسان ولا تعدوه، فتلك تهلك صاحبها ولا تنفعه.

لذا طلب الله من معشر المؤمنين أن يتوبوا إليه توبة صادقة، فهي التي تورث صاحبها الفلاح والسعادة قال الله - سبحانه وتعالى: **{وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** [النور: ٣١] وقال: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا}** [التحريم: ٨]

وهيا لنعيش في أكناف التائبين أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: " كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانا، ثم خرج يسأل، فأتى راهبا فسأله فقال: هل من توبة؟ " قال: لا، فقتله وجعل يسأل، فقال رجل: ائت قرية كذا وكذا، فأدركه الموت فناء بصدرة نحوها ومات، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله إلى هذه أن تقربي، وأوحى إلى هذه أن تباعدي قال: فوجدوه أقرب إلى هذه بشبر، فغفر له " (٢)

(١) - صفة الصفوة (٢/ ٢٢)

(٢) - متفق عليه، البخاري (٣٢٨٣) باب {أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم}، مسلم (٢٧٦٦) باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، واللفظ له.

وهذا ما عَزَّ بن مالك جاء النبي ﷺ تائباً من الزنى وقال طهرني وفي الحديث " لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لو سعتهم "(١)

أخي المسلم فهذه بعض وسائل أسباب الثبات عند الممات ... فهيا لنرى أهل الثبات في الصفحات الآتية.

الفصل الثاني

صور من الثبات عند الممات

ثبات عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

عن أنس بن مالك قال دخلنا على عبد الله بن مسعود نعوذه في مرضه فقلنا

كيف أصبحت أبا عبد الرحمن؟

قال: أصبحنا بنعمة الله إخوانا.

(١) - أخرجه مسلم (١٣٢١/٣)، رقم (١٦٩٥)، وأبو داود (١٤٩/٤)، رقم (٤٤٣٣)

قلنا كيف تجدك يا أبا عبد الرحمن؟

قال أجد قلبي مطمئنا بالإيمان.

قلنا ما تشتكي أبا عبد الرحمن؟

قال أشتكى ذنوبي وخطاياي.

قلنا ما تشتهي شيئاً؟

قال أشتهي مغفرة الله ورضوانه.

قلنا له ألا ندعو لك طبيباً؟

قال الطبيب أمرضني.^(١)

فتأمل عبد الله قول عبد الله "أجد قلبي مطمئنا بالإيمان" لأن صاحب القلب قال فيه

ﷺ: من سره أن يقرأ القرآن كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن عبد "

ثبت إيمانه فكانت ساقه عند الله أثقل من جبل أحد.

وعن زر بن حبیش ابن مسعود ﷺ: أنه كان يجتني سواكا من الأراك وكان دقيق الساقين

فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: مم تضحكون؟ قالوا: يا

نبي الله من دقة ساقيه، فقال: "والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من أحد."^(٢)

ثبات عامر بن فهيرة ﷺ

لما طعن جبار بن سلمى عامر بن فهير فأنفذه قال عامر: فزت ورب والله

^(١) - المحتضرين (ص: ٢٣٩)

^(٢)

قال: وذهب بعامر علوا في السماء حتى ما أراه فقال رسول الله ﷺ إن الملائكة وارت جثته وأنزل عليّ: وسأل جبار بن سلمى عن قوله: فزت والله، قالوا الجنة، قال: فأسلم جبارا لما رأى عامر بن فهيرة فحسن إسلامه

عامر له من اسمه نصيب فهو عامر بالإيمان فنال الحياة الأبدية لثباته على مبدأ التوحيد ونال الجوائز الست قال رسول الله ﷺ (لشّهد عند الله ست خصال يغفر له في أول دفعة من دمه. ويرى مقعده من الجنة. ويجار من عذاب القبر. ويأمن من الفزع الأكبر. ويحلّى حلة الإيمان. ويزوج من الحور العين. ويشفع في سبعين إنسانا من أقاربه) (١)

ثبات سالم بن معقل مولى أبي حذيفة

قال عمر بن الخطاب لو استخلفت سالما مولى أبي حذيفة فسألني عنه ربي عز وجل ما حملك على ذلك لقلت رب سمعت نبيك صلى الله عليه وسلم وهو يقول يحب الله عز وجل حقا من قلبه" (٢)

وعن أحمد بن عبد الله قال استشهد سالم مولى أبي حذيفة باليمامة أخذ اللواء بيمينه فقطعت ثم تناولها بشماله فقطعت ثم اعتنق اللواء وجعل يقرأ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم إلى أن قتل" (٣)

ثبات جعفر بن أبي طالب

وأخرج ابن إسحاق عن عبّاد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: حدثني أبي الذي أَرْضَعَنِي -وكان أحد بني مرة بن عوف -وكان في تلك الغزوة غزوة مؤتة قال: والله

(١) - أخرجه الترمذي (١٦٤٠)

(٢) - صفة الصفوة (١/ ٣٨٣)

(٣) - صفة الصفوة (١/ ٣٨٤)

لكأنّي أنظر إلى جعفر رضي الله عنه حين اقتحم عن فرس له -شقراء- ثم عقرها، ثم قاتل القوم حتى قتل؛ وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقتربها طيبةً وباردُ شرابها

والرومُ رومٌ قد دنا عذابها كافرةٌ بعيدةٌ أنسابها

عليّ إذ لاقيتها ضرابها

وذكر ابن هشام أن جعفرا أخذ اللواء بيمينه فقطعت فأخذه بشماله فقطعت فاحتضنه بعضديه حتى قتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة فأثابه الله بذلك جناحين يطير بهما حيث شاء

ويقال إن رجلا من الروم ضربه يومئذ فقطعه نصفين" (١)

ثبات معاذ بن جبل

عن عمرو بن قيس أن معاذ بن جبل لما حضره الموت قال انظروا أصبحنا قال فقييل لم نصبح حتى أتني فقييل له قد أصبحت قال أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار مرحبا بالموت مرحبا زائر مغرب حبيب جاء على فاقة اللهم إنك تعلم أنني كنت أخافك فأنا اليوم أرجوك إني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها" (٢)

ثبات معاوية بن أبي سفيان

(١) - الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء (٢/ ١٧٤)

(٢) - المحتضرين (ص: ١١٠)

ولما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة رضي الله عنه قال أقعدوني فأقعدوه فجعل يذكر الله تعالى ويسبحه ويقدسه ثم قال الآن تذكر ربك يا معاوية بعد الانحطام والانهدام ألا كان ذلك وغصن الشباب نضير ريان وبكى حتى علا بكاءه ثم قال هو الموت لا منجى من الموت والذي ... أحاذر بعد الموت أدهى وأفظع ثم قال يا رب ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي اللهم أقل العثرة واغفر الزلة وجد بحلمك على من لم يرج غيرك ولا وثق بأحد سواك ثم فاضت روحه ﷺ (١)

ثبات بلال بن رباح رضي الله عنه

عن سعيد بن عبد العزيز قال بلال حين حضرته الوفاة غدا نلقى الأحبة محمداً وحزبه قال تقول امرأته وابلا لاه قال يقول هو وافر حاه (٢).

ثبات عبد الله بن رواحة رضي الله عنه

وعن الحكم بن عبد السلام بن نعمان بن بشير الأنصاري: أن جعفر بن أبي طالب حين قُتل دعا الناس: يا عبد الله بن رواحة، يا عبد الله بن رواحة. وهو في جانب العسكر ومعه ضلع جملٍ ينهشه ولم يكن ذاق طعاماً قبل ذلك بثلاث. فرمى الضلع ثم قال: وأنت مع الدنيا. ثم تقدم فقاتل فأصيبت إصبعة فارتجز فجعل يقول:

هل أنت إلا إصبع دَميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ

يا نفسِ إلا تُقتلي تموتي هذا حياض الموت قد صليت

وما تمنيتِ فقد لقيتِ إن تفعلي فعلهما هُديت

(١) - العاقبة في ذكر الموت (ص: ١٢٥)

(٢) «المحتضرين» (ص: ٢٠٨).

وإن تأخرت فقد شقيت

ثم قال: يا نفس إلى أي شيء تتوقين؟ إلى فلانة؟ هي طالق ثلاثاً. وغلى فلانٍ وإلى فلان؟
غلمان له، وإلى معجف، حائط له، لهو لله ولرسوله.^(١)

ثبات زيد بن الخطاب رضي الله عنه

وعن الجحاف بن عبد الرحمن من ولد زيد بن الخطاب عن أبيه قال كان زيد بن الخطاب
يحمل راية المسلمين يوم اليمامة وقد انكشف المسلمون حتى غلبت بنو حنيفة عن
الرحال فجعل زيد يقول أما الرحال فلا رحال وأما الفرار فلا فرار ثم جعل يصيح بأعلى
صوته اللهم إني أعذر إليك من فرار أصحابي وأبرأ إليك مما جاء به مسيلمة وجعل يشدد
بالراية ينفذ بها في نحر العدو ثم ضارب بسيفه حتى قتل ووقعت الراية فأخذها سالم
مولي أبي حذيفة فقال المسلمون يا سالم إنا نخاف أن نؤتى من قبلك فقال بئس حامل
القرآن أنا إن أتيتم من قبلي"^(٢)

ثبات أنس بن مالك رضي الله عنه

عن ابن سيرين قال: شهدت أنس بن مالك و حضره الممات فجعل يقول: لقنوني: لا إله
إلا الله: فلم يزل يقولها حتى قبض رضي الله عنه

ثبات حذيفة بن اليمان رضي الله عنه

^(١) - سير أعلام النبلاء ١٤٧/٣ . والاستيعاب لابن عبد البر ١٧٤/٦ .

^(٢) - صفة الصفوة (١/ ٤٤٧)

عن زياد مولى ابن عياش قال حدثني من دخل على حذيفة في مرضه الذي مات فيه فقال لولا أنني أرى أن هذا اليوم آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة لم أتكلم به اللهم إنك تعلم أنني كنت أحب الفقر على الغنى وأحب الذلة على العز وأحب الموت على الحياة حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم ثم مات رحمه الله" (١)

ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه:

كان خطيب رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ يقول نعم الرجل ثابت بن قيس فلما كان يوم اليمامة انهزم المسلمون فقال ثابت أف لهؤلاء ولما يعبدون ولهؤلاء ولما يصنعون يا معشر الأنصار خلوا ثنيتي لعلي أصلي بحرهما ساعة قال ورجل قائم على ثلثة فقتله وقتل.

وعن أنس أن ثابت بن قيس جاء يوم اليمامة وقد تحنط ولبس ثوبين أبيضين يكفن فيهما وقد انهزم القوم فقال اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء المشركون واعتذر إليك مما صنع هؤلاء ثم قال بئس ما عودكم أقرانكم منذ اليوم خلوا بيننا وبينهم ساعة فحمل فقاتل حتى قتل. (٢)



ثبات أبي حازم رحمته الله

(١) - صفة الصفوة (١/ ٦١٤)

(٢) - صفة الصفوة (١/ ٢٠٢)

محمد بن مطرف قال: "دخلنا على أبي حازم الأعرج لما حضره الموت، فقلنا: يا أبا حازم كيف تجدك؟ قال: "أجدني بخير. قال: أجدني راجيا لله، حسن الظن به. ثم قال: إنه والله ما يستوي من غدا وراح يعمر عقد الآخرة لنفسه فيقدمها أمامه قبل أن ينزل به الموت حتى يقدم عليها فيقوم لها وتقوم له، ومن غدا وراح في عقد الدنيا يعمرها لغيره، ويرجع إلى الآخرة لا حظ له فيها ولا نصيب" (١)

ثبات ثابت البناني رحمه الله

عن محمد بن ثابت البناني قال: "ذهبت ألقن أبي عند الموت فقال: يا بني خل عني فإني في وردي السابع. كأنه يقرأ ونفسه تخرج" (٢)

لله درك يا ثابت مازلت على الطاعة حتى عند خروج روحك من الدنيا فالقلب عامر بذكر الله و النفس مطمئنة.

ثبات: عمر بن عبد العزيز رحمه الله

المغيرة بن حكيم قال: قالت لي فاطمة بنت عبد الملك - امرأة عمر بن عبد العزيز -: كنت أسمع عمر في مرضه الذي مات فيه يقول: "اللهم أخف عليهم موتي ولو ساعة من نهار. فلما كان اليوم الذي قبض فيه، خرجت من عنده، فجلست في بيت آخر، بيني وبينه باب، وهو في قبة له، فسمعتة يقول: {تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين} [القصص: ٨٣]. ثم هدا. فجعلت لا أسمع له حركة ولا كلاما. فقلت لو صيف كان يخدمه: ويليك انظر أمير المؤمنين أنائم هو؟ فلما دخل عليه

(١) - المحتضرين لابن أبي الدنيا (ص: ١٢٣)

(٢) - المحتضرين لابن أبي الدنيا (ص: ١٢٨)

صاح فوثبت، فدخلت، فإذا هو ميت، قد استقبل القبلة، وأغمض نفسه، ووضع إحدى يديه على فيه، والأخرى على عينيه" (١)

ثبات أبي بكر بن عياش رحمته الله

إبراهيم بن أبي بكر بن عياش قال: بكيت عند أبي حين حضرته الوفاة فقال: ما يبكيك؟ أترى الله يضيع لأبيك أربعين سنة، يختم القرآن كل ليلة؟ الهيثم بن خارجة قال: رأيت أبا بكر بن عياش في النوم، قدامه طبق رطب مسكر. فقلت له: يا أبا بكر ألا تدعونا وقد كنت سخياً على الطعام؟ فقال لي: يا هيثم هذا طعام أهل الجنة لا يأكله أهل الدنيا. قال قلت: وبم نلت؟ قال تسألني عن هذا وقد مضت علي ست وثمانون سنة أختم في كل ليلة منها القرآن؟ (٢)

ثبات الإمام الشافعي رحمته الله

وعن المزني قال: دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه فقلت: يا أبا عبد الله! كيف أصبحت؟ فرفع رأسه، وقال: أصبحت من الدنيا راحلاً، ولإخواني مفارقاً ولسوء عملي ملاقياً، وعلى الله وارداً ما أدري روعي تصير إلى جنة فأهنيها، أو إلى نار فأعزيها ثم بكى وأنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضافت مذاهبي جعلت رجائي دون عفوك سلماً

تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظماً

فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منة وتكرما

(١) - المحتضرين لابن أبي الدنيا (ص: ٨١)

(٢) - صفة الصفوة (٢/ ٩٦)

فإن تنتقم مني فلست بآيس ولو دخلت نفسي بجرمي جهنما

ولولاك لم يغوى إبليس عابد فكيف وقد أغوى صفيك آدمًا

وإني لآتي الذنب أعرف قدره وأعلم أن الله يعفو ترحما^(١)

ثبات الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله

عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال لما حضرت أبي الوفاة جلست عنده ويدي الخرقة لأشد بها لحية فجعل يعرق ثم يفيق ثم يفتح عينيه ويقول بيده هكذا لا بعد لا بعد ففعل هذا مرة وثانية فلما كان في الثالثة قلت له يا أبة أي شيء هذا قد لهجت به فلي هذا الوقت تعرق حتى نقول قد قضيت ثم تعود فتقول لا بعد لا بعد.

فقال لي يا بني ما تدري ما قلت: قلت لا فقال إبليس لعنه الله قائم حدائي عاض على أنامله يقول لي يا أحمد فتني فأقول لا بعد لا بعد حتى أموت.^(٢)

ثبات الجنيد بن محمد رحمته الله

وقال أبو بكر العطار حضرت الجنيد عند الموت في جماعة من أصحابنا قال فكان قاعدا يصلي ويشني رجله كلما أراد أن يسجد فلم يزل كذلك حتى خرجت الروح من رجله فثقل عليه حركتها فمد رجليه وقد تورمتا فرآه بعض أصدقائه فقال ما هذا يا أبا القاسم فقال هذه نعم الله أكبر فلما فرغ من صلاته قال له أبو محمد الحريري لو اضطجعت قال يا أبا محمد هذا وقت يؤخذ منه الله أكبر فلم يزل ذلك حاله حتى مات رحمه الله.^(٣)

(١) - صفة الصفوة (١/ ٤٣٨)

(٢) - صفة الصفوة (١/ ٤٨٨)

(٣) - صفة الصفوة (١/ ٥٢١)

ثبات أبي الحسن حسن بن محمد الخولاني الكاشي رحمته الله

وكان أبو الحسن حسن بن محمد الخولاني الكاشي قد سمع عند احتضاره، يقول: لا. يا عدو الله، حتى يردوا الرداء. فقليل له: ما هذا؟ قال: إبليس عند رأسي، يقول نجوت مني. وسمع وهو يقرأ عند خروج نفسه: إن المتقين في جنات ونهر.^(١)

ثبات أبي يعقوب إسحاق بن محمد النهرجوري رحمته الله

دخل المزين: "لما مرض أبو يعقوب النهرجوري، قلت -وهو في التزع-: "قل: لا إله إلا الله! فتبسم إلى وقال: "إياي تعني؟! وعزة من لا يذوق الموت! ما بيني وبينه إلا حجاب العزة" وانطفأ من ساعته. فكان المزين يأخذ بلحيته ويقول: "حجام مثلي يلقي أولياء الله الشهادة؟! واخجلتاه منه!" ويبكي إذا ذكر ذلك.^(٢)

ثبات عابد عند الموت رحمته الله

وقال محمد بن إسماعيل الصنعاني: قيل لبعض الصالحين وهو في السياق قل: لا إله إلا الله، ففتح عينيه و أنشد:

وغدا يذكرني عهدا بالحمى ومتى نسيت العهد حتى اذكر^(٣)

الخاتمة

^(١) - ترتيب المدارك وتقريب المسالك (١/ ٣٨٦).

^(٢) - طبقات الأولياء (ص: ٢٣).

^(٣) - سكب العبرات "ج ١ ص: ٤٣).

أخي المسلم ... أختي المسلمة ... بعد أن عشنا في أكناف الأنبياء و الصالحين و عرفنا وسائل الثبات سواء كانت أمام الطغاة أو الشهوات أو أمام المصائب أو عند الممات ، و عرفنا كيف ثبت هؤلاء أم أمام المحن و لإحن و جب علينا أن نفتدي بهم و أن نسير على منهجهم لأن الله تعالى قال: { **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ** } [الأنعام: ٩٠] وقال سبحانه: { **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى** } [يوسف: ١١١]

فالنجاة... النجاة... والحذر... الحذر

فالله أسأل أن ينفعنا بما قلنا و أن يهدينا بها و يجعلنا سببا لمن اهتدى، فيا ملقب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، و يا مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك ، و يا ولي الإسلام مسك قلوبنا بالإسلام ، اللهم احملنا في سفن نجاتك، و متعنا بلذيت مناجاتك، و أوردنا حياض حبك، و أذقنا حلاوة ودك و قربك، و اجعل جهادنا فيك، و همنا في طاعتك، و أخلص نياتنا في معاملتك، فإن بك ولك، و لا وسيلة لنا إليك إلا أنت، سبحانه ما أضيق الطرق على من لم تكن دليله ، و ما أوضح الحق عند من هديته سبيله .

اللهم املاً قلوبنا بك فرحاً، و ألسنتنا لك ذكراً، و جوارحنا فيما يرضيك شغلاً .

اللهم امح عن قلوبنا كل ذكر إلا ذكرك، و كل حب إلا حبك، و لك ود إلا ودك ، و كل إجلال إلا إجلالك ، و كل رجاء إلا لك ، و كل خوف إلا منك ، و كل رغبة إلا إليك ، و كل رهبة إلا لك و كل سؤال إلا منك آمين آمين آمين

تم الكتاب بعون الملك الوهاب

كتبه الفقير إلى الله المشتاق إلى جواره

أبو همام / السيد مراد سلامة

المراجع

كتب التفسير:

- ١- تفسير ابن كثير
- ٢- تفسير القرطبي
- ٣- أيسر التفاسير لابي بكر الجزائري
- ٤- في ظلال القرآن لسيد قطب

كتب السنة

- سنن ابن ماجه
- سنن الترمذي
- سنن النسائي
- شرح السنة للبغوي
- صحيح الأدب المفرد للألباني
- صحيح البخاري
- الصحيح الجامع للألباني
- صحيح مسلم
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر
- مسند الإمام أحمد

كتب التاريخ والتراجم:

أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ - ذرية إبراهيم والمسجد الأقصى جمال عبد الهادي

البداية والنهاية لابن كثير

حلية الأولياء لأبي نعيم

حياة الصحابة للكاند هلوي

الرحيق المختوم المباركفوري

سير أعلام النبلاء للذهبي

السيرة النبوية - لابي الحسن الندوي

صفة الصفوة لابن الجوزي

وقفات تربوية لأحمد فريد

كتب الزهد والأخلاق:

إغاثة اللفهان - لابن القيم الجوزية

أقباس روحية - محمد شيت خطاب

التذكرة - للقرطبي

تسلية المصاب - احمد فريد

التقوى - احمد فريد

الثبات في زمن المتغيرات - إبراهيم الدويش

الجزء من جنس العمل - سيد حسين العفاني

حتى يعلم الشباب - عبد الله ناصح علوان

حياة ابن تيمية - لابي الحسن الندوي

دروس ومحاضرات - على القرني

دور الشباب في حمل رسالة الإسلام - عبد الله ناصح علوان

روضة المحبين لابن القيم الجوزية

زاد المعاد - لابن القيم الجوزية

سكب العبرات - سيد حسين العفاني

الشفاء بتعريف حقوق المصطفى - القاضي عياض

صور من العفة - محمد بن عبد الرحمن العجمي

صيد الخاطر - لابن الجوزي

طريق الهجرتين - لابن القيم الجوزية

ألف قصة وقصة - هاني الحاج

الفوائد - لابن القيم الجوزية

قصص إيمانية - عادل محمد عبد الله

قصه أهل الكهف - سعيد عبد العظيم

القضاء والقدر - عمر الأشقر

لا تحزن - عائض القرني

لطائف المعارف - لابن رجب

المتجر الرابع في ثواب العمل الصالح - للحافظ الدمياني

مجلة التوحيد عدد ربيع الأول ١٤٢٤

مدارج السالكين - لابن القيم الجوزية

مصارع العشاق - لعائض القرني

من أخلاق العلماء - محمد سليمان

منهج الإسلام في تحرير النفس البشرية - عد اللطيف بدر

هكذا علمتني الحياة - على القرني

الوابل الصيب - لابن القيم الجوزية

الفهرس

المقدمة

٥.....

الباب الأول

٧ وسائل الثبات على الإيمان

الباب الثاني

٢٩ صور من الثبات على الإيمان أمام الطغاة

٣١..... الفصل الأول: ثبات الأنبياء والرسل

٣١..... ١- نوح عليه السلام

٣٨..... ٢- هود عليه السلام

٤٢..... ٣- إبراهيم عليه السلام

٥٠..... ٤- موسى عليه السلام

٥٥..... ٥- دنيال عليه السلام

٥٦..... ٦- محمد ﷺ

٦٢ الفصل الثاني: ثبات اتباع الأنبياء والرسل ممن كان قبلنا

٦٣..... ١- أصحاب الأخدود

٦٧..... ٢- امرأة فرعون

- ٣- ماشطة ابنة فرعون ٧٠
- ٤- سحرة فرعون ٧٢
- ٥- أصحاب الكهف ٧٦
- ٦- صاحب ياسين ٨٢
- الفصل الثاني: ثبات الصحابة - رضي الله عنهم ٨٤
- فضل الصحابة ٨٤
- ١- ثبات أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٨٧
- ٢- أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها ٩٢
- ٣- عبد الله بن حذافة رضي الله عنه ٩٤
- ٤- بلال رضي الله عنه ٩٩
- ٥- عمار بن ياسر رضي الله عنه ١٠٠
- ٦- خباب بن الارت رضي الله عنه ١٠١
- ٧- ثبات أي ذر رضي الله عنه ١٠٢
- ٨- عثمان بن مظعون رضي الله عنه ١٠٣
- ٩- خبيب بن عدي رضي الله عنه ١٠٥
- الفصل الثاني: ثبات التابعين ١٠٧

- ١- أبو مسلم الخولاني ١٠٧
- ٢- سعيد بن جبير ١٠٨
- جزاء الحجاج بن يوسف ١١٢
- ٣- حطيط الزيات ١١٤
- ٤- الإمام الأوزاعي ١١٥
- ٥ شيخ الإسلام أبي الحسن ١١٧
- ٦- أبو بكر النابلسي ١١٨
- ٧- العز بن عبد السلام ١٢٠
- ٨- الإمام أحمد بن حنبل ١٢٤
- ٩- شيخ الإسلام ابن تيمية ١٢٦

الباب الثالث

١٣٠

الثبات أمام الشهوات

- الفصل الأول وسائل الثبات على الإيمان أمام الشهوات ١٣٢
- أولاً: تقوى الله ١٣٣
- ثانياً: مراقبة الله تعالى ١٣٥
- ثالثاً: تذكر حقوق المنعم ١٣٦
- رابعاً: نتائج الشهوات ١٣٩

- خامسا: مجاهدة النفس ١٤١
- الفصل الثاني: صور من الثبات على الإيمان أمام الشهوات ١٤٢
- ١- ثبات نبي الله يوسف عليه السلام ١٤٣
- ٢- جريج العابد ١٤٧
- ٣- الربيع بن خثيم ١٤٨
- ٤- سليمان بن يسار وعطاء بن يسار ١٥١
- ٥- السري بن دينار ١٥٢
- ٦- عید بن عمیر ١٥٣
- ٧- منزلة التائبين ١٥٤
- ٨- ثبات أبي بكر المسكي ١٥٤
- ٩- الموت ولا معصية ربي ١٥٥
- ١٠- شمعة وعفيف ١٥٦
- ١١- عبد العزيز الهندي ١٥٨
- ١٢- وهل نام الله؟ ١٥٩
- ١٣- إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ١٦٠
- ١٤- جعلتها ذخيرة لله ١٦١
- ١٥- عمر وشبيه يوسف عليه السلام ١٦٠

الباب الرابع

صور من الثبات على الإيمان عند حلول المصائب

١٦٥

الفصل الأول: أسباب الثبات على الإيمان عند حلول

المصائب.....١٦٦

الفصل الثاني: صور الثبات على الإيمان عند حلول

المصائب.....١٧٥

المبحث الأول: ثبات الأنبياء على الإيمان عند حلول

المصائب.....١٧٥

١- ثبات إبراهيم عليه السلام.....١٧٥

٢- ثبات أيوب عليه السلام.....١٧٨

٣- ثبات النبي صلى الله عليه وسلم.....١٨١

المبحث الثاني صور من ثبات الصحابة و التابعين.....١٨١

١- عمران بن حصين رضي الله عنه.....١٨١

٢- عبد الله بن عباس رضي الله عنه.....١٨٢

٣- معاذ بن جبل رضي الله عنه.....١٨٣,

٤- امرأة من أهل الجنة.....١٨٤

٥- امرأة من الأنصار..... ١٨٥

٦- ثبات أبي ذر رضي الله عنه..... ١٨٦

٧- عد الله بن عامر..... ١٨٦

وقفة ثبات عون الصبر..... ١٨٧

٨- ثبات أعرابية..... ١٨٨

١٠- يزيد بن هارون..... ١٩١

الباب الخامس

١٩٥ الثبات عند الممات

الفصل الأول وسائل الثبات عند الممات..... ١٩٦

أولاً: الاستقامة..... ١٩٩

ثانياً: التقوى..... ٢٠٠

ثالثاً: حسن الظن بالله..... ٢٠١

رابعاً: الصدق مع الله..... ٢٠٢

خامساً: التوبة الصادقة..... ٢٠٣

الفصل الثاني : صور من الثبات على الإيمان عند الممات

..... ٢٠٥

١- عبد الله بن مسعود رضي الله عنه..... ٢٠٥

- ٢- عامر بن فهيرة رحمته الله..... ٢٠٦
- ٣- سالم مولى أبي حذيفة رحمته الله..... ٢٠٧
- ٥- جعفر بن أبي طالب رحمته الله..... ٢٠٧
- ٦- معاذ بن جبل رحمته الله..... ٢٠٨
- ٧- معاوية بن أبي سفيان رحمته الله..... ٢٠٨
- ٨- بلال بن رباح رحمته الله..... ٢٠٨
- ٩- عبد الله بن رواحة رحمته الله..... ٢٠٩
- ١٠- زيد بن الخطاب رحمته الله..... ٢٠٩
- ١١- انس بن مالك رحمته الله..... ٢١٠
- ١٢- حذيفة بن اليمان رحمته الله..... ٢١٠
- ١٣- ثابت بن قيس رحمته الله..... ٢١٠
- ١٤- ثبات أبي حازم رحمته الله..... ٢١١
- ثبات ثابت البناني رحمته الله..... ٢١١
- ١٥- عمر بن عبد العزيز..... ٢١١
- ١٦- ثبات أبي بكر بن عياش..... ٢١٢
- ١٧- الامام الشافعي..... ٢١٢
- ١٨- الامام أحمد..... ٢١٣

١٩- الجنيد ٢١٣

٢٠- ثبات أبي الحسن حس

الخولاني ٢١٤

٢١- ثبات أبي يعقوب إسحاق ٢١٤

٢٢- ثبات عابد ٢١٤

المراجع ٢١٧

الفهرس ٢٢